العبودية

تأليف

شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم
ابن تيمية الحراني الدمشقي
المتوفى ٧٢٨ هـ
رحمه الله

تحقيق

علي حسن عبد الحميد

دار الأصالة - الإسماعيلية


بسم الله الرحمن الرحيم

العُبُودِيَّة

الطّبعة الثالِثة

١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

مقدمة الطبعة الثانية

الحمدُ للَّه حقَّ حَمْدِهِ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبيِّه وعبدِه ، وعلى آلِه وصَحْبِهِ وَوَفْدِه .

أمَّا بعد :

فهذه هي الطبعةُ الثانيةُ مِن كتاب « العُبوديَّة » لشيخ الإِسلام ابن تيميَّة - رحمه اللَّهُ تعالى - بتحقيقي وتعليقي - أُقدِّمُها للإِخوة الأَفاضل مِن قُرَّاء عِلْمِ هذا الإِمامِ العَلَم ، لينتفِعوا بها ، وتَعظُمَ فائدَتُهم منها .

ولم أُضِف إِليها كثيرًا من التعليقاتِ والتنقيحات ، سوى تصحيحاتٍ وإِضافاتٍ على المَتْنِ ، وَقَفْتُ عليها جَرَّاءَ مُراجعاتٍ أُخرى ، وبخاصَّةٍ لمطبوعةِ « مجموع الفتاوى » للمؤلِّف - رحمه اللَّهُ تعالى - .

وإِنّي أَقول في هذا المقَام : إِنَّ أَيَّ عَمَلٍ بَشَريٍّ مهما سَمَا وعَلا فإِنّه عُرْضَةٌ للأَخْذِ والردِّ ، والمُراجَعَةِ والنَّقد ...

وعليه ؛ فإِنَّ صَدْري مفتوحٌ لِكُلِّ أَخٍ حبيبٍ ينتقدُني انتقادًا علميًّا بنَّاءً ، يُطَبِّقُ فيه قولَ نبيِّه ﷺ : « **لا يؤمِنُ أَحدُكم حتّى يُحِبَّ لأَخيهِ ما يُحِبُّ لنفسِه** »[1] .

---

(١) رواه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥) عن أَنس رضي اللَّه عنه .

والله - وحدَه - هو الموفِّقُ .

فاللَّهَ أَسأَلُ أَنْ ينفعَ بهذا العمل ، كما نفعَ بسابقيهِ ؛ إِنَّه سميعٌ مجيبٌ .

وكتب

أَبو الحارثِ الأَثريُّ

عفا اللَّه عنه

الزرقاء : لِثمانٍ خَلَوْنَ مِن شهر رمضان المبارك

سنة (١٤١٥ هـ) .

مقدمة الطبعة الأُولى

إنَّ الحمدَ للَّهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُهُ ، ونعوذُ باللَّهِ مِن شرورِ أنفسِنا ، ومِن سيِّئاتِ أعمالنا ، مَن يَهْدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له ، ومَن يُضلل فلا هاديَ له .

وأشهدُ أنْ لا إله إلّا اللَّهُ وحدَه لا شريك له .

وأشهد أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولُه .

أما بعد :

فإنَّ العُبوديَّةَ هي أعظمُ ما يُحَصِّلُه الإنسانُ في هذه الحياةِ الدُّنيا ، لتكونَ وسيلَتَه لِرِضا اللَّهِ سبحانه ، وورودِ جَنَّتِه .

والعبوديةُ هي الغايةُ التي خَلَقَ اللَّهُ سبحانَهُ الخَلْقَ مِن أجلها : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلّا لِيَعْبُدونِ** ﴾ .

والعبوديةُ هي سَبَبُ إنزالِ الكُتُبِ ، وإرسالِ الرُّسُلِ :

﴿ **وَلَقَد بَعثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رسولًا أنِ اعْبُدوا اللَّه واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ .

« ولفظُ « **العبوديّة** » يتضمّنُ كمالَ الذُّلِّ ، وكمالَ الحُبِّ » [١] .

« وبِقَدْرِ تَكْميلِ العُبوديّة تَكْمُلُ محبَّةُ العبدِ لربِّه ، وتَكْمُلُ محبّةُ الربِّ لِعَبْدِهِ » [٢] .

---

(١) هذا الكتاب (ص ٩٤) .

(٢) هذا الكتاب (ص ١٠٦ ، ١٠٧) .

وَلَقَد وَرَدَتْ آياتٌ قُرآنيةٌ كثيرةٌ في تقرِيرِ حَقِّ العبادةِ للَّهِ ، وأَنَّهُ حَقٌّ لازِمٌ مطلوبٌ مِن الإنْسِ والجنِّ عُمومًا ؛ مِن ذلك قولُ ربِّنا جلّت قُدْرَتُه : ﴿ يا أيُّها الناسُ اعْبُدوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُم والذينَ مِن قَبْلِكُم لعلَّكم تَتَّقونَ ﴾ .

وهذه الآيةُ الكريمةُ هي الَّتي بنى عليها شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمِيَّةَ [(١)] - رحمه اللَّهُ - رسالتَه هذه ، وهي التي نحنُ في صَدَدِ التقديم لها : « العبوديَّة » .

وهي رسالةٌ عظيمةٌ جدًّا ، لم يُصَنَّف مثلُها في بابها ؛ لِمَا حَوَتْه مِنْ فَرَائِدِ الفَوائِدِ ، ونَفَائسِ المَعَارف .

فلمَّا كانَ أمرُ هذه الرسالةِ كذلك رَأيْتُ لزومَ نَشْرِها وتَحْقِيقهَا ، والتَّعْلِيقِ عليها ، وتَخْريج أحاديثها ؛ بما يُضاعِفُ - إن شاء اللَّهُ - دَرَجَةَ النَّفْعِ بها ، والاستفادةَ منها .

فاللَّهَ أسألُ التيسير والسَّداد ، إنَّه نِعْمَ المولى والموفِّق للرَّشاد .

وصلى اللَّهُ على نبيِّه وعبدِه محمدٍ وعلى آله وَصَحْبِهِ وَسلّم .

* * *

(١) ولعظيم شُهْرتِه - رحمه اللَّه - يُستغنى عن التطويل في ذِكْرِ ترجمته ، وانظر « التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار » لابن شيخ الحزَّامين بتحقيقي .

طَبعَاتُ الْكِتَابِ

طُبعت رسالةُ « العبودية » مرّاتٍ عدّةً ؛ منها سنوات (١٩٦٢م ، ١٩٦٧م ، ١٩٧٩م) [1] وغيرها ، وأجودُ هذه الطبعات ، هي طبعة المكتب الإسلامي في بيروت ؛ إلا أنّها لم تَخْلُ مِن نَقْص وتصحيفٍ وتَحْريفٍ ، وقصورٍ في التخريجِ .

وبيانُ شيءٍ مِن ذلك فيما يلي :

١ - (صفحة : ٦٠) : « ليس هو حال فيه ولا متّحد به » .

وصوابه : « ليس هو حالًّا فيه ولا مُتحدًا به » .

٢ - (صفحة : ٦١) : حديث : « هي من قَدَر اللَّهِ » .

لم يُخَرَّج ، وهو ضعيفٌ كما سيأتي في موضعِهِ إن شاء اللَّه .

٣ - (صفحة : ١٠١) : في بيان أقسام العبوديّة :

« ما يحتاج العبدُ إليه مِن طعامِه وشرابِهِ » .

سقط منه [قوله] : « ما يحتاج العبدُ إليه [كما يحتاج إليه] من طعامِهِ وشرابِهِ » .

٤ - (صفحة : ١٠٥) : حديث : « الآن يا عمر ! » .

عزاه في التعليق للشيخينِ ، وإنما هو مِن مفاريد البخاريِّ .

٥ - (صفحة : ١٠٨) : قولهُ : « وإذا تبيَّنَ هذا ، فَكُلَّما ازداد

---

(١) « ذخائر التراث العربي » (١ / ٦٥) .

القلبُ حُبًّا له عبوديةً » .

سقط منه [قوله] : « ... فكلّما ازداد القلبُ حُبًّا له [ازداد له] عبوديةً » .

٦ - (صفحة : ١٠٨) : قولُهُ : « إلا بعبادة ربِّه وحُبِّه والإنابة » .

[سقط منه] : « والإنَابَةِ [إليه] » .

٧ - (صفحة : ١٠٩) : قوله : « لا يُحَبُّ شيئًا لذاتِه إلا للّه » .

صوابُه : « .... إلَّا اللَّهَ » .

٨ - (صفحة : ١٠٩) : قوله : « ولا حقُّ التوحيدِ والعبوديةِ » .

صوابه : « ولا حَقَّقَ التوحيدَ والعبوديّةَ » .

٩ - (صفحة : ١١١) : سكوتٌ مِن المعلّق على حديثٍ ضعيفٍ ، وهو حديث التكبير عند الحريق !

وسيأتي (صفحة) .

١٠ - (صفحة : ١١٣) : قوله : « ومثل هذا القرآنِ كثيرٌ » .

وقد سقط حرفُ الجَرِّ : « ومثلُ هذا [في] القرآن كثيرٌ » .

١١ - (صفحة : ١٢٩) : سقطت منها صفحةٌ كاملةٌ !

استدركتُها مِن « مجموع الفتاوى » (١٠ / ٢٠٧) .

١٢ - (صفحة : ١٣٨) : قوله : « يا بقايا العرب ... » !!

صوابُه : « يا نعايا العَرب » .

وسيأتي بشرحِهِ وتخريجهِ (صفحة ١٠٩) .

١٣ - (صفحة : ١٤٩) : قوله : « وأبي الحسن النوري » .

صوابه : « وأبو الحُسين النُّوري » .

١٤ - (صفحة : ١٥٦) : حديث : « أفضل ما قلتُ أنا والنبيُّون مِن قبلي : لا إله إلّا اللَّه .... » .

عزاه في التعليق لـ « مالك في « الموطأ » مرسلًا » ! ثم قال (صفحة ١٦٤) مخالفًا : « رواه مالك مرسلًا بإسناد صحيح ، والترمذي وحسّنه ، وهو كما قال باعتبار أنَّ له شاهِدًا . انظر « المشكاة » ٢٥٩٨ » !!

وانظر ما سيأتي (صفحة ١٢٤) .

١٥ - (صفحة : ١٦٢) : حديث : « اجعلوها في ركوعكم ... » .

صحّح المُعَلِّقُ سندَه !! مع أنَّ فيه راويًا مجهولًا !! كما سيأتي (صفحة ١٣٠) .

١٦ - (صفحة : ١٦٦) : حديث : « أفضلُ كلمةٍ قالها الشاعرُ : كلمةُ لَبيد : ألَا كُلُّ شيءٍ ما خلا اللَّهَ باطلُ » .

عزاه للبخاريِّ وحدَه ! وهو مُتَّفَقٌ عليهِ ، كما سيأتي (صفحة ١٣٤) .

١٧ - (صفحة : ١٦٦) قال في الحاشية تعليقًا على الحديث السابق : « وتمام البيت : وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلُ » !

هكذا صَنَعَ هُنا !! وفي طبعتهِ الجديدةِ مِن « صحيح الجامع » (١٠٠٤) زاد هذا التَّمامَ في صُلْب الحديثِ ، ثم علّق بقولِه : « ما بين القوسين زيادة منّا ، والبيت في « ديوان لَبيد بن ربيعة العامري » (صفحة ١٣٢) » !!

وهذا - كما هو واضحٌ - ليس مِن النَّهْجِ العلميِّ في شيءٍ ! فالحديثُ شيءٌ ، وتمامُ الشِّعر شيءٌ آخَرُ !!

ولقد ذكر الحافظُ ابنُ حَجَر في « الإصابة » (٦ / ٤) القصة المشهورة في السِّيرة لِعُثمانَ بن مَظْعون مَعَ لَبيد ، لمّا أنشد قُريشًا هذه القصيدةَ بعينها ، فلما قرأ : « أَلَا كُلُّ شيءٍ ما خلا اللَّهَ باطِلُ » ، قال له عثمانُ : صدقتَ ، فلما قال : « وكُلُّ نَعيم لا محالةَ زائلُ » . قال له عثمانُ : كذبتَ ، نعيمُ الجنةِ لا يزولُ . فغَضِبَ لَبِيدٌ .

وانظر « البداية والنهاية » (٣ / ٩٢) لابن كثير و « فتح الباري » (٧ / ٥٣) لابن حجر .

١٨ - (صفحة : ١٦٧ - ١٦٨) : حديث : « مَنْ قرأ القرآن فأعْرَبَه ... » عزاه المعلّق للترمذيِّ بلفظٍ آخَرَ ، مع تصحيح سنده !

مَعَ أنَّ لفظَ : « فأعربه » واردٌ ضمن حديثٍ آخر لا يصحُّ ، كما بيّنتهُ في تعليقي على « الوصية الكبرى » (ص ٥٨) لشيخ الإسلام رحمه اللَّهُ .

قلت :

فهذه ملاحظاتٌ عامَّةٌ سريعةٌ ، وثَمَّتَ ملاحظاتٌ أُخرى تُعْرَفُ بالنَّظر والمقارنة (١) .

* * *

(١) وبمناسبة انتقادي - في هذا الموضع - لطبعة المكتب الإسلاميّ المُشار إليها هنا أَقولُ :
إنَّ النَّقدَ العلميَّ المحْضَ - لأَيِّ إنسان أَو أَيَّةِ جهةٍ - لا يُمَثِّلُ قَدْحًا ولا ثَلْبًا ، إنَّما هو مُباحَثَةٌ علميّةٌ خالصةٌ ، وبالتالي فهو عُرْضةٌ للقَبُول والردِّ ، حَسَبَ ما يقتضيهِ البُرهانُ والدليلُ .
أَمَّا الكلامُ الَّذي قد يُفْهَمُ منه - مِن ذلك أو مثله - إقذاعٌ ذاتيٌّ ، أَو تجريحٌ شخصيٌّ ، سواءٌ للمكتب الإسلاميّ وصاحبِهِ الأَخ الشيخ زهير الشاويش ، أَو غيرِهما ، فإنِّي أَبرأ إلى الله سُبحانه منه .
ومِن بابةِ ذلك ما سَبَقَ أَنْ نَشَرْتُهُ في رسالتي « الإيقاف .. » نقلًا عن رسالة بخطّ الأُستاذ محمود مهدي إستانبولي - سدّده الله - تَحْوي ذِكْرَ الأَخ الشيخ زُهير بشيءٍ ما ؛ فإنّي قد ظَهَرَ لي - بَعْدُ - تراجُعُ الإستانبولي عنه ، واعتذارُهُ منه .
وتَبَعًا لهذا ؛ فإنّي أَرجع - هنا - عمّا أَثبتُّهُ هناك - وما بُني عليه من تعليقاتي - أَداءً لحقِّ أَمانة العلمِ والأخوّةِ .
ربَّنا لا تؤاخِذْنا إنْ نسينا أَو أَخطأنا ، ولا تَجْعَلْ في قلوبنا غِلًّا لِلّذين آمنوا ..
والرجوعُ إلى الحقّ خيرٌ مِن التمادي في ضدِّه ..
واللّهُ وليُّ التوفيق .



هذا الكتاب

مَجْزومٌ بنسبتِه لمصنِّفه رحمه اللَّه تعالى :

قال ابنُ عبد الهادي في « العقود الدُّرِّيَّة » (صفحة ٤٣) عند ذِكرِهِ مُؤلَّفاتِ الشيخِ :

« وقاعدةٌ في الكلامِ على قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّها النَّاسُ اعْبدوا رَبَّكُم الذي خَلَقَكُم** ... ﴾ الآية ، تُسمَّى « العبوديَّة » ، وهي جليلةُ القَدْر » .

وَكذا نَسَبَها إليهِ جَمَالُ الدِّينِ ابنُ المِبْرَدِ في « **مُعْجَم الكُتُب** » (صفحة ١٢٠) .

وَذَكرَها - أيضًا - الإمامُ ابنُ قَيِّم الجوزيّة في رسالتِه « أسماء مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية » (صفحة ٩) ، وقال : « نحو سبعين ورقةً » .

* * *



بسم اللَّه الرحمن الرحيم

وبه نستعين

إنَّ الحمدَ لِلَّهِ ، نَحمَدُهُ ونستعينُهُ ونستغفِرُهُ ، ونعوذُ باللَّهِ مِنْ شُرورِ أنْفُسِنا ومِنْ سَيِّئاتِ أعْمالنا ، مَنْ يَهْدِه اللَّهُ فلا مُضِلَّ له ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هادِيَ له .

وأشهدُ أنْ لا إله إلا اللَّه وحدَه لا شريك له .

وأشهدُ أنّ مُحمدًا عَبدهُ ورسولُه .

أمّا بَعْدُ :

فقد سُئِلَ شَيْخُ الإسلامِ وعَلَمُ الأعلام ، ناصِرُ السُّنَّةِ ، وقامعُ البدعَةِ أحمدُ بنُ عبدِ الحليمِ ابنِ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللَّه - عن قولِه عزَّ وجلَّ : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم** ﴾ [البقرة : ٢١] .

فما العبادةُ ؟

وما فروعُها ؟

وهل مجموعُ الدِّين داخلٌ فيها أمْ لا ؟

وما حقيقةُ العبودِيّةِ ؟

وهل هي أَعْلى المقاماتِ في الدُّنيا والآخرةِ ؟

أم فوْقَها شيءٌ مِنَ المقاماتِ ؟

وَلْيَبْسُطْ لنا القَوْلَ في ذلك .

فأجاب رَحِمهُ اللّه :

[مَدْخَلٌ]

العبادةُ : هي اسمٌ جامِعٌ لِكُلِّ ما يُحِبُّه اللَّهُ ويَرْضَاهُ مِنَ الأَقوالِ والأعْمالِ الباطِنَةِ والظّاهِرةِ [1] :

فالصّلاةُ ، والزّكاةُ ، والصيامُ ، والحجُّ ، وصِدْقُ الحديثِ ، وأَداءُ الأمانةِ ، وبِرُّ الوالدَين ، وصِلَةُ الأرْحامِ ، والوفاءُ بالعهودِ ، والأمرُ بالمعروفِ ، والنَّهْيُ عن المنكَرِ ، والجهادُ للكُفّارِ والمنافِقين ، والإحسانُ للجارِ ، واليتيمِ ، والمسكينِ ، وابن السّبيل ، والمملوكِ ؛ مِنَ الآدَمِيّين ، والبهائِمِ ، والدُّعاءُ ، والذِّكْرُ ، والقراءَةُ ، وأمْثالُ ذلك : مِنَ العبادَةِ .

وكذلك حُبُّ اللَّهِ ورسولِهِ ، وخَشْيةُ اللَّهِ والإنابةُ إليه وإخلاصُ الدِّين له ، والصَبْرُ لِحُكْمِه ، والشُّكرُ لِنعَمِه ، والرِّضَا بقضائِه ، والتوَكُّلُ عليه ، والرّجاءُ لرَحْمَتِه ، والخوفُ مِنْ عذابِه ، وأمثالُ ذلك : هي مِنَ العبادة للَّهِ .

وذلك : أنَّ العبادة للَّهِ هي الغايةُ المحبوبةُ له والمَرْضِيَّةُ له ، والتي خَلَقَ الخَلْقَ لها : كما قال اللَّه تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وبها أرسلَ جميعَ الرّسلِ ، كما قال : نوحٌ لقومِه : ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ**

---

(١) قال المقريزي في « تجريد التوحيد المفيد » (ص ٨٢ - بتحقيقي) : « واعلَمْ أنَّ العبادة أربعُ قواعِدَ هي : **التَّحَقُّقُ** بما يُحِبُّ اللَّهُ ورسولُه ويرضاه ، وقيام ذلك **بالقلب** ، **واللسانِ** ، **والجوارح** ، فالعبوديّة اسمٌ جامعٌ لهذه المراتبِ الأربع ، فأصحابُ العبادةِ حَقًّا هم أصحابُها » .

﴿ مَا لَكُمْ مِن إلهٍ غيرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

وكذلك قال هودٌ ، وصالحٌ ، وشعيبٌ ، وغيرهم لقومِهم [(١)] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا في كُلِّ أُمةٍ رَسُولًا أنِ اعْبُدُوا اللَّه واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾ [النحل : ٣٦] .

وقالَ تَعالى : ﴿ وَمَا أرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رسولٍ إلَّا نُوحِي إلَيْهِ أنَّه لا إله إلّا أنا فَاعْبُدونِ ﴾ [الأَنبياء : ٢٥] .

وقالَ تَعالى : ﴿ إنَّ هذه أُمتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأنَا ربُّكُمْ فَاعْبُدونِ ﴾ [الأنبياء : ٩٢] .

كما قال في الآية الأُخْرَى : ﴿ يَا أَيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إنِّي بما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وإنَّ هذهِ أُمَّتُكم أُمَّةً وَاحدَةً وَأنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون : ٥١ - ٥٢] .

وَجعَلَ ذلك لازِمًا لرسوله إلى الموتِ ؛ كما قال : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتّى يَأْتِيَكَ اليقينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] .

وبذلك وَصَفَ ملائِكَتَهُ وأنبياءَه ؛ فقال تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ في السَّمَاواتِ والأَرضِ وَمَنْ عِندَه لا يَستَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِه وَلَا يَستَحسِرُون * يُسَبِّحُونَ اللَّيلَ والنَّهارَ لا يَفْتُرُون ﴾ [الأنبياء : ١٩ - ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ إنَّ الذين عِندَ رَبِّكَ لا يَستكبِرُونَ عَنْ عبادَتِه ويُسَبِّحونَهُ وَلَهُ يَسْجُدونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٦] .

وَذَمَّ المُستَكْبِرينَ عنها بقولِهِ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ *

إنَّ الَّذين يَستَكْبِرُونَ عَنْ عِبادتي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرينَ ﴾ [غافر : ٦] .

وَنَعَتَ صَفْوَةَ خَلْقِهِ (١) بالعبودِيّة له ، فقال تعالى : ﴿ عَيْنًا يَشرَبُ بها عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونها تَفْجيرًا ﴾ [الإنسان : ٦] .

وقال : ﴿ وَعِبادُ الرَّحمَنِ الَّذينَ يَمْشونَ عَلى الأرضِ هَوْنًا وإذا خاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ [الفُرقان : ٦٣] .

ولمّا قال الشّيطانُ : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجمَعِينَ * إلّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر : ٣٩ - ٤٠] ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ إلا مَنِ اتَّبعك من الغاوين ﴾ [الحجر : ٤٢] .

وقال في وَصْفِ الملائِكَةِ بذلك : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَه بالقَوْلِ وَهُمْ بأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِم وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إلّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُون ﴾ [الأنبياء : ٢٦ - ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُم شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوا للرَّحْمَنِ وَلَدًا * وما يَنْبغِي للرَّحمَنِ أَنْ يَتخِذَ وَلَدًا * إنْ كلُّ مَنْ في السَّمَاواتِ والأَرضِ إلّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحصَاهُمْ وعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُم آتيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٨٨ - ٩٥] .

وقال تعالى عن المسيح الذي ادُّعِيَتْ فيه الإلَهيةُ (٢) والنُّبوَّةُ :

---

(١) وهم الصالحون ، القائمون بأمرِهِ .

(٢) كما ادَّعاه فيه النصارى ؛ المحَرِّفُون لكتابهم ، المخَرِّبون لعقائدهم .

=

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عليه وجَعَلناهُ مَثَلًا لبني إسرائيلَ ﴾ [الزخرف : ٥٩] .

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح [١] : « **لا تُطْرُوني** [٢] **كما أطْرَتِ النَّصارى عيسى ابنَ مريمَ ، فإنما أنا عبدٌ ، فقولوا : عبدُ اللَّهِ ورسولُهُ** » .

= وفي رسالتي « دراسة وتحليل لأصول النصرانية والأناجيل » تفصيلٌ لهذا الإجمال ؛ يسَّرَ اللَّهُ إتمامها .

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥) ، والدارمي (٢ / ٣٢٠) ، وأحمد (١ / ٢٣ و ٢٤ و ٥٥) ، والطيالسي (٢٤٢٤) ، والبَغَوي في « شرح السنة » (١٣ / ٢٤٦) ، وفي « الأنوار » (٤٢٠) ، والترمذي في « الشمائل » (٢٨٤) ، ومَعْمَر في « جامعه » (٢٠٥٢٤) ، والحميدي (١ / ١٦ / ٢٧) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٥ / ٤٩٨) عن عُمر بن الخطّاب .

(٢) فُسِّرَ الإطراءُ بالمبالغةِ في المدح ! وهو مُتعقَّبٌ :

قال شيخُنا في تعليقه على « مختصر الشمائل المحمدية » (صفحة ١٧٥) للتِّرمِذيِّ : « حَمْلُ الحديث على المبالغة في مدحِهِ ﷺ بِمَا لا يُناسب ما تَرجم له المؤلف - رحمه اللَّه - ، ألا وهو تواضُعُه ﷺ ، ذلك أنَّ المبالغة تقترن عادةً بالكذبِ والغلوّ في الدين ، وذلك محرّمٌ ، فالنهي عن مثلِهِ من الأمور التي لا يَظْهَرُ به تواضُعُه كما لا يخفى ، فيبعدُ أن يكون هذا هو مُرادَ المؤلف .

فلعلّ الأَوْلى أَنْ يُقال : إنَّ المراد : لا تمدحوني مطلقًا ، وهو من معاني الإطراء لُغةً ، وهو وإن كان جائزًا في الأصل ، فقد يُنهى عن مثلِهِ مِن باب سَدِّ الذريعة ، كما هو معلوم من علم الأُصول ، فإن فتح باب المدح قد يؤدي إلى مخالفة الشرع كما هو مشاهَدٌ في الواقع ، إمّا جهلًا وإمّا غُلُوًّا !

ألا ترى معي إلى ما قال بعضهم [وهو البوصيري] في مدحِه ﷺ :

دَعْ ما ادَّعَتْهُ النَّصارى في نبيِّهم ... واحْكُم بما شِئْتَ مدحًا فيه واحتَكِمِ

كيف أوصله إلى أن قال فيه ﷺ :

فإنَّ مِن جودك الدنيا وضرَّتَها ... ومِن علومك علمَ اللوحِ والقَلَمِ

وهذا مَدْحٌ بما هو باطلٌ بداهَةً ، ومثلُهُ كثيرٌ فيما يسمُّونه بالأناشيد الدينية .

فَنَهْيُهُ ﷺ أُمَّتَه عن مَدْحِه - بما هو جائزٌ أصلًا خشيةَ وقوعِ المادحِ فيما لا يجوزُ - لا شكَّ أنه مِن تواضعِهِ ﷺ كما يدلُّ عليه سائر أحاديث الباب وغيرها ، بخلافِ حَمْلِ النهي على المدح المحرّم ، وهذا بيِّنٌ لا يخفى إن شاء اللَّهُ .

وَيُؤَيِّدهُ قولهُ في آخر الحديثِ : « **إنما أنا عبدٌ** ... » لأنه كأنّه خَرَجَ مَخْرَجَ الجوابِ عن سؤالٍ مُقدَّر : فماذا نقولُ في مَدْحِك يا رسول اللَّه ؟ فقال : « **قولوا : عبدُ اللَّهِ ورسولُه** » : أي : قولوا ما لا شكَّ فيه شرعًا بِمّا أنا مُتَّصِفٌ به ولا تزيدوا عليهِ .

وأين هذا مما يصفُهُ بعضُ المسلمين اليومَ فيما يُسَمُّونَه بالموالِد وغيرها بِمّا لَمْ يَكُن معروفًا عند السَّلَف الصالح ، كقولهم : إنه نور ! وإنّه أول خلق اللَّه ! وإنّ جبريلَ كان خادمَه ليلةَ الإسراء ! وغير =

وقد نَعَتَهُ اللَّهُ بالعُبودِيّة في أَكْمَل أحواله ، فقال في الإسراءِ : ﴿ **سُبْحَانَ الّذي أسْرى بِعَبْدِهِ ليْلًا** ﴾ [الإسراء : ١] .

وقال في الإيحاءِ : ﴿ **فأَوْحَى إلى عَبْدِهِ ما أَوْحَى** ﴾ [النجم : ١٠] .

وقال في الدّعوةِ : ﴿ **وأنّه لما قامَ عبدُ اللّهِ يَدْعوهُ كادوا يكونونَ عليه لِبَدًا** ﴾ [الجن : ١٩] .

وقال في التَّحدّي : ﴿ **وَإِنْ كُنْتُم في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلى عَبْدِنا فأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ** ﴾ [البقرة : ٢٣] .

فالدِّينُ كُلُّهُ داخلٌ في العبادة .

وقد ثبت في « الصحيحِ » (١) أنَّ جبريلَ لمّا جاء إلى النبي ﷺ في صُورةِ أعرابيٍّ وسألَهُ عن الإسلامِ ؟ قال :

« **أَنْ تشهدَ أن لا إله إلا اللّهُ وأنَّ مُحَمّدًا رسولُ اللّهِ ، وتقيمَ الصّلاةَ ، وتؤتيَ الزكّاةَ ، وتَصُومَ رمَضانَ ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إنِ استطَعْتَ إليهِ سَبيلًا** » .

قال : فما الإيمانُ ؟

= ذلك مِن المادِح والأباطيل ؟ !

﴿ **فاعتبروا يا أولي الأبصار** ﴾ » . ا هـ .

وانظر لزيادة الفائدة كتابَ شيخِنا « التوسُّل » (ص ٨٠ - ٨٢) .

(١) « صحيح مسلم » (رقم ٨) .

ورواه - أيضًا - النّسائي (٨ / ٩٧) ، والترمذي (٢٧٣٨) ، وأبو داود (٤٦٩٥) ، وابن ماجه (٦٣) ، وأحمد (١ / ٢٧ و ٢٨ و ٥٢ و ٥٣) عن عمر .

ورواه البخاري (١ / ١٠٦) ، ومسلم (٩ و ١٠) ، وابن ماجه (٦٤) ، وأحمد (٢ / ٤٢٦) عن أبي هريرة .

ورواه أحمد (١ / ٣١٩) والبزّار (٢٤) عن ابن عباس .

ورواه النسائي (٨ / ١٠١) ، وأبو داود (٤٦٩٨) عن أبي ذرّ وأبي هريرة .

قال : « **أَنْ تُؤْمِنَ باللَّهِ، وملائِكتِهِ وكُتُبِه، ورُسُلِه، والبَعْثِ بعدَ الموتِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ** » .

قال : فما الإحسانُ ؟

قال : « **أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كأَنَّكَ تراه ، فإنْ لمْ تَكُنْ تَراه فإنّه يَراكَ** » .

ثم قال في آخرِ الحديثِ : « **هذا جبريلُ جاءَكُم يُعَلِّمُكم دِينَكم** » .

فجعل هذا كلَّه مِنَ الدِّين .

والدِّينُ يتضَمَّنُ معنى الخُضوعِ والذّلِّ ، يقال : دِنْتُه [١] ، فدانَ ، أي : ذَلَّلْتُهُ فَذَلَّ .

ويقال : يَدينُ [٢] اللَّهَ ، ويَدينُ للَّهِ ، أي : يعبدُ اللَّهَ ويطيعُه ويخضَعُ له .

فدينُ اللَّهِ : عبادَتُه وطاعَتُه والخضوعُ له .

والعبادَةُ أَصْلُ مَعْناها الذلُّ أيضًا ، يقال : طريقٌ معبَّد ؛ إذا كانَ مُذَلَّلًا قد وَطِئَتْهُ الأَقْدامُ .

لكِنَّ العبادَةَ المأْمورَ بها تتضَمَّنُ معنى الذّلِّ ومعنى الحبِّ ، فهي تتضَمَّنُ غايةَ الذلِّ للَّهِ تعالى بغايةِ المحَبَّةِ له .

فإنَّ آخِرَ مراتبِ الحُبِّ [٣] : هو التَّتَيُّمُ ، وأَوَّلُه : العَلاقةُ ، لتَعَلُّقِ القلبِ بالمحبوبِ ، ثم الصَّبابَةُ ، لانْصِبابِ القَلْبِ إليه ، ثم الغرامُ ، وهو

---

(١) «القاموس المحيط» (ص ١٥٤٦) ، «مختار الصحاح» (ص ٢١٧) ، «المصباح المنير» (ص ٢٠٥) .

(٢) ومِن الأخطاء الفظيعة الشائعة في هذهِ الكلمةِ ضمُّ الياء: «يُدين» وهي هكذا بمعنى الإدانة! وهو الاتِّهام !!

(٣) انظر هذه المراتب مُفَصَّلةً عند تلميذ المؤلف العلامة ابن قيِّم الجوزية في « رَوْضة المحبِّين » (ص ١٦) ، و « إغاثة اللهفان » (ص ١٠٣ - موارد الأمان - بقلمي) .

الحُبُّ اللازِمُ للقَلْبِ ، ثم العِشْقُ ، وآخِرُها التَّتَيُّمُ يقال : تَيْمُ اللَّهِ ، أي : عَبْدُ اللَّهِ ، فالمتيّم : المعبَّدُ لمحبوبه .

ومَنْ خَضَعَ لإنسانٍ مع بُغضِه له لا يكونُ عابِدًا له ، ولو أحبَّ شيئًا ولم يَخْضَعْ له لم يَكُنْ له عابدًا ، كما قد يُحِبُّ وَلَدَهُ وصديقَه .

ولهذا لا يَكْفِي أحَدُهُما في عبادةِ اللَّهِ تعالى ، بل يَجِبُ أنْ يكونَ اللَّهُ أحَبَّ إلى العَبْدِ مِنْ كلِّ شيءٍ ، وأَنْ يكونَ اللَّهُ أَعْظَمَ عندهُ مِنْ كلِّ شيءٍ ، بل لا يَسْتَحِقُّ المحَبَّةَ والذُّلَّ التامَّ إلا اللَّهُ .

وكلُّ ما أُحِبَّ لغيرِ اللَّهِ فَمَحَبَّتُهُ فاسدةٌ ، وما عُظِّمَ بغيرِ أَمرِ اللَّهِ كان تعظيمُهُ باطلًا .

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ **قُلْ إنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأبْناؤُكُمْ وَإخْوانُكُمْ وَأزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أحَبَّ إلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسولِهِ وَجِهادٍ في سَبيلِه فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتيَ اللَّه بأمْرِهِ** ﴾ [التوبة : ٢٤] .

فجِنْسُ المحَبَّةِ تكونُ للَّهِ ورسولِهِ كالطَّاعةِ ، فإنَّ الطاعَةَ للَّهِ ورسولِهِ ؛ والإرضاءَ للَّهِ ولرسولِه : ﴿ **واللَّه وَرَسُولُه أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ** ﴾ [التوبة : ٦٢] ، والإيتاءَ للَّهِ ورسولِهِ : ﴿ **ولو أنَّهم رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّه ورسولُه** ﴾ [التوبة : ٥٩] .

وأمَّا العِبَادَةُ وما يُناسِبُها مِنَ التوكُّلِ والخَوفِ ونحو ذلك ، فلا تكونُ إلّا للَّهِ وحدَه ؛ كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أنْ لاَ نَعْبُدَ إلّا اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِه شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذ**

بَعْضُنا بَعْضًا أَرْبابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فإنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهم رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وقالُوا حَسْبُنا اللَّه سَيُؤْتِينَا اللَّه مِنْ فضلِهِ ورسولُهُ إنَّا إلى اللَّهِ رَاغِبُونَ** ﴾ [التوبة : ٥٩] .

فالإيتاءُ للَّهِ والرّسولِ ، كقوله : ﴿ **وَما آتاكُمُ الرَّسولُ فَخُذُوه وما نهاكُمْ عنه فانْتَهُوا** ﴾ [الحشر : ٧] .

وأما الحَسْبُ - وهو الكافي - فهو اللَّهُ وَحْدَهُ ، كما قال تعالى : ﴿ **الَّذين قَالَ لَهمُ النّاسُ إنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُم إيمانًا وقَالوا حَسْبُنا اللَّه وَنِعْمَ الوكيلُ** ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّها النبيُّ حَسْبُكَ اللَّه وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المؤْمنين** ﴾ [الأنفال : ٦٤] .

أي : حَسْبُك وحَسْبُ مَنِ اتَّبعكَ من المؤمنين : اللَّهُ .

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ المعنى : حَسْبُكَ اللَّهُ والمُؤمنون معه ؛ فقد غَلِطَ غَلَطًا فاحِشًا ، كما قد بَسَطْنَاهُ في غيرِ هذا الموضِعِ (١) .

---

(١) قال المصنِّف - رحمه اللَّه - في « منهاج السنة » (٧ / ٢٠١) مفسِّرًا الآية التفسير الصحيح :

« معناه : أن اللَّه حَسْبُكَ وحَسْبُ من اتَّبَعَكَ مِن المُؤمنين ، فهو وحدَه كافيك ، وكافي مَن مَعَكَ مِن المؤمنين .

وهذا كما تقولُ العرب : حَسْبُك وزيدًا دِرْهَمٌ

ومنه قولُ الشاعر :

.... فَحَسْبُكَ والضَّحَّاكَ سَيْفٌ مُهَنَّدُ » .

ثم طوّل - رحمه اللَّه تعالى - في تقرير ذلك .

وانظر (٢ / ٣٢) و (٨ / ٤٨٧) منه .

وقد فات هذا الموضعُ صاحبَ « دقائق التفسير » ! =

وقال تعالى : ﴿ أليسَ اللَّه بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦] .

وتحريرُ ذلك : أَنَّ العبدَ يُرادُ به المعبَّد الذي عبَّده اللَّه ، فَذَلَّله ودبَّره وصرَّفه .

وبهذا الاعتبارِ فالمخلوقونَ كلُّهم عبادُ اللَّهِ : الأبرارُ منهم والفُجَّارُ ، والمؤمِنونَ والكُفَّارُ ، وأهلُ الجنَّةِ وأهْلُ النَّارِ ، إذ هو رَبُّهم كلُّهم ومليكُهم لا يَخْرُجون عن مشيئَته وقُدْرَتِه ، وكلماتِهِ التّامّاتِ التي لا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ ولا فاجِرٌ (١) ، فما شاءَ كان وإنْ لم يشاؤوا ، وما شاؤُوا إنْ لم يَشَأْهُ لم يَكُنْ ، كما قال تعالى : ﴿ **أَفَغَيْرَ دين اللَّهِ يَبْغُون وله أسْلَمَ مَنْ في السمَاوات والأرض طَوْعًا وكَرْهًا وإليه يُرْجَعُون** ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

فهو سُبحانه رَبُّ العالَمين ، وخالِقُهم ورازِقُهم ، ومُحْيِيهم ومُمِيتُهم ،

= (فائدة) : بهذا تعرفُ غَلَطًا شائعًا بين الناس عندما يقول أحدُهم للآخر : « أنا محسوبك » ، فهذا غَلَطٌ بيِّنٌ ، حقُّه أن يُلْحَقَ بـ « المناهي اللفظية » ، واللَّه الهادي .

(١) وفي هذا إشارة إلى ما صَحَّ عن النبي ﷺ مِن قوله : « **أتاني جبريلُ فقال : يا محمد ! قُل ، قلتُ : وما أقول ؟ قال : قل : أعوذ بكلمات اللَّه التامات التي لا يُجاوِزُهُنَّ بَرٌّ ولا فاجرٌ مِن شَرِّ ما خَلَقَ ...** » . إلخ .

رواه أحمد (٣ / ١٩) ، وابن السني (٦٣١) ، والأَزدي في « المخزون » (١٢٢) ، والبخاريُّ في « التاريخ » (٣ / ١ / ٢٤٨) ، والدارقطني في « المؤتلف » (٢ / ٦٩٧) وغيرهم عن عبد الرحمَن بن خَنْبَش بسندٍ حَسَنٍ .

وأورده السيوطي في « جمع الجوامع » (رقم : ٥٠١٨ - ترتيبه) وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، والبزّار ، والحسن بن سفيان ، وأبي زُرعة ، وابن منده وأبي نُعَيم في « الدلائل » .

وأورده (٣٩٨٠) مِن مُرسل مكحول عن ابن أبي شيبة .

وانظر « تعجيل المنفعة » (صفحة ٢٤٩) و « الإصابة » (٤ / ٣٠٠ - ٣٠١) .

وَمُقَلِّبُ قلوبهم ، ومُصَرِّفُ أُمورِهم ، لا رَبَّ لهم غيرُه ، ولا مالكَ لهم سواه ، ولا خَالِقَ لهم إلّا هو ، سواءٌ اعترفوا بذلك أو أنْكَرُوه ، وسواءٌ علِمُوا ذلك أوْ جَهِلُوه ، لكنَّ أهلَ الإيمان منهم عَرَفُوا ذلك ، واعترفوا به ، بخِلافِ مَنْ كانَ جاهِلًا بذلك ، أو جاحِدًا له مُسْتَكْبِرًا على رَبِّه ولا يُقِرُّ ولا يَخْضَعُ له ، مع عِلْمِهِ بأَنَّ اللَّهَ رَبُّه وخالِقُه .

فالمعرفةُ بالحقِّ إذا كانت مع الاستكبار عن قَبُولِه والجَحْدِ له كان عَذابًا على صاحِبِه ، كما قال تعالى :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْها أنْفُسُهم ظُلْمًا وعُلُوًّا فانظُرْ كيف كان عاقِبَةُ المُفْسدين ﴾ [النَّمل : ١٤] .

وقال تعالى : **﴿ الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَه كَما يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهم وإنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمونَ الحقَّ وهم يَعْلَمُونَ ﴾** [البقرة : ١٤٦] .

وقال تعالى : **﴿ فإنَّهم لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظّالمينَ بآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾** [الأنعام : ٣٣] .

فإنِ اعترفَ العَبْدُ أَنَّ اللَّهَ ربُّه وخالِقُه ، وأنّه مفتقِرٌ إليه محتاجٌ إليه ؛ عَرفَ العبودِيَّةَ المتُعلِّقَةَ بربوبيّة اللَّهِ ، وهذا العبدُ يَسْأَلُ رَبَّهُ ، ويتضَرَّعُ إليه ، ويتوَكَّلُ عليه ، لكِنْ قد يُطيعُ أَمْرَه وقد يَعْصِيهِ ، وقد يَعْبُدُه مع ذلك ، وقد يَعْبُدُ الشّيطَانَ والأَصْنَامَ .

ومِثْلُ هذه العبودِيَّة لا تُفَرِّقُ بين أهْل الجَنَّةِ وَأَهلِ النّارِ ، ولا يصيرُ بها الرّجلُ مُؤْمنًا ، كما قال تعالى : **﴿ وَما يُؤْمِنُ أكثرُهم باللَّهِ إلا وهم مُشْرِكون ﴾** [يوسف : ١٠٦] .

فإنَّ المُشرِكين كانوا يُقِرُّونَ أَنَّ اللَّهَ خالِقُهم ورازِقُهم ، وهم يَعْبُدون

غيرَه ، قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السّماواتِ والأرضَ ليقولُنَّ اللّه ﴾ [الزمر : ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ قُل لمنِ الأَرْضُ ومَنْ فيها إنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للّهِ قُلْ أفلا تَذَكَّرُون * قُلْ مَنْ رَبُّ السّماواتِ السَّبْعِ ورَبُّ العَرْشِ العَظيم * سَيَقُولونَ للّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقونَ * قُلْ مَنْ بيدِه مَلَكُوتُ كُلِّ شيءٍ وهو يُجِيرُ ولا يُجَارُ عليهِ إنْ كُنْتم تَعْلَمونَ ، سَيَقُولونَ للّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٤ - ٨٩] .

وكثيرٌ مِمَّنْ يَتَكلَّم في الحقيقة (١) ويشهَدُها يشهَدُ هذه الحقيقةَ ، وهي الحقيقةُ الكونِيّةُ التي يشتَرِكُ فيها وفي شُهودِها ومَعْرِفتها المؤمنُ والكافِرُ ، والبَرُّ والفاجِرُ ، بل وإبليسُ معترِفٌ بهذه الحقيقةِ وأَهْلُ النّار :

قال إبليسُ : ﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْني إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [ص : ٧٩] .

وقال : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَني لأُزَيِّنَنَّ لَهمْ في الأَرْضِ ولأُغْوِيَنَّهُمْ أَجمَعين ﴾ [الحجْر : ٣٩] .

وقال : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هذا الذّي كَرَّمْتَ عليَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ الْقِيامةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرّيتَهُ إلّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٢] .

وأمثالُ هذا مِنَ الخطابِ الذي يُقِرُّ فيه بأنَّ اللّهَ ربُّه وخالِقُه وخالِقُ غَيْرِه .

وكذلك أَهْلُ النّار : ﴿ قالوا ربَّنا غَلَبَتْ علينا شِقْوَتُنا وكُنّا قومًا ضالّين ﴾ [المؤمنون : ١٠٦] .

(١) أي : حقيقة الربوبية ووجود اللّهِ تعالى ، كالصُّوفيّةِ وأمثالهم !

وقال تعالى عَنْهم : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِم قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ﴾ [الأنعام : ٣٠] .

فَمَنْ وَقَفَ عند هذه الحقيقةِ وعندَ شُهودِها ، ولم يَقُمْ بما أُمِرَ به مِنَ الحقيقةِ الدينيّةِ ، التي هي عبادَتُه المتعلّقَةُ بألوهِيَّتهِ وطاعةِ أمْرِه وأَمْرِ رسولِه ؛ كان مِنْ جنسِ إبليسَ وأَهْلِ النّار .

وإنْ ظَنَّ مع ذلك أنَّه مِنْ خواصِّ أولياءِ اللَّهِ وأَهْلِ المعرفَةِ والتّحقيقِ - الذين سقَطَ عنهم الأَمْرُ والنَّهيُ الشّرعِيّان - كان مِنْ أشَرِّ أَهلِ الكُفْرِ والإلحَادِ [1] !!

ومَنْ ظنَّ أنَّ الخَضِرَ [2] وَغيْرَه سقط عنهم الأَمْرُ لمشاهدَةِ الإرادةِ ونَحْو ذلك ؛ كان قولُه هذا مِنْ شرِّ أقوالِ الكافرين باللَّهِ ورسولِه ، حتى يَدخُلَ في النَّوع الثاني مِنْ معنى العبد ، وهو العبدُ بمعنى العابِد ، فيكونَ عابدًا للَّهِ ، لا يعبدُ إلا إياه ، فَيُطيعَ أَمْرَه وأَمْرَ رُسُلِه ، ويُوالي أولياءَه المؤمنينَ المُتَّقِينَ ، ويُعادي أعداءَه .

وهذه العبادةُ مُتَعَلِّقَةٌ بإلاهيتِهِ تعالى ، ولهذا كان عنوانُ التّوحيد : « لا إِلَه إلا اللَّهُ » ، بخلافِ مَنْ يُقِرُّ بربوبِيَّتِه ولا يعبُدُه ، أَوْ يَعْبُدُ مَعَه إلَهًا آخَر .

فالإلَه : هو الذي يأْلَهُهُ القَلْبُ بكمالِ الحُبِّ والتعظيمِ ،

(١) قارن بما كَتَبه الإمامُ ابنُ الجوزي في كتابه النافع المستطاب « تلبيس إبليس » (صفحة ٤٥٦ - المنتقى النفيس / بقلمي) .

(٢) وللمصنِّف - رحمه اللَّهُ - كلامٌ مطوَّلٌ حولَ الخضِرِ عليه السلام ، وَرَدٌّ كثيرٍ من الاعتقادات الباطلة التي حاكها حوله الصوفيّةُ وغيرُهم من المنحرفين ، فانظر « مجموع الفتاوى » (٤ / ٣٣٧ - ٣٤١) و (١٠ / ٤٣٤) و (١١ / ٤٣٠) و (١٣ / ٢٦٦) و (٢٧ / ١٠٠ - ١٠٢) وغيرها .

والإجلالِ والإكرامِ ، والخَوْفِ والرّجاءِ ، ونَحْوِ ذلك .

وهذه العبادةُ هي التي يُحِبُّها اللَّهُ وَيَرْضاها ، وبها وَصَفَ المُصْطَفَيْنَ مِنْ عبادِهِ ، وبها بَعَثَ رُسُلَه .

وأَمَّا العَبْدُ بمعنى المُعبَّد - سواءٌ أَقرَّ بذلك أو أَنْكَره - فهذا المعنى يشترِكُ فيه المؤمنُ والكافرُ .

وبالفَرْقِ بين هذَين النَّوعيْنِ يُعْرَفُ الفرقُ بينَ الحقائقِ الدينيّةِ الداخلةِ في عبادةِ اللَّهِ ودينه وأمره الشّرعيّ التي يُحِبُّها ويَرْضاها ويوالي أَهْلَها ويُكْرِمُهُم بجَنَّتِه ؛ وبينَ الحقائِقِ الكونية التي يَشْتَرِكُ فيها المؤمنُ والكافرُ ، والبَرُّ والفاجِرُ ، التي مَنِ اكْتَفى بها ولم يَتّبعِ الحقائقَ الدينيّةَ كان مِنْ أَتباعِ إبليسَ اللّعينِ ، والكافرين بربِّ العالمين ، ومَن اكتفى بها في بعض الأمورِ دونَ بعضٍ ، أو في مقامٍ دونَ مقامٍ ، أو حالٍ دونَ حالٍ نَقَصَ من إيمانِهِ وولايتِهِ للَّهِ بحسبِ ما نَقَصَ من الحقائق الدينيّة .

وهذا مقامٌ عظيمٌ غَلِطَ فيه الغالِطون ، وكَثُرَ فيه الاشتباهُ على السّالكين ، حتى زَلَقَ فيه مِنْ أكابِرِ الشّيوخِ المُدَّعين للتّحقيقِ والتّوحيدِ والعِرْفَانِ ما لا يُحْصِيهِم إلَّا اللَّهُ الذي يَعْلَمُ السرَّ والإعلانَ .

وإلى هذا أشارَ الشَّيخُ عبدُ القادرِ [(١)] - رحمه اللَّهُ - فيما ذُكِرَ [(٢)] عنه ، فَبَيَّنَ أَنَّ كثيرًا مِنَ الرّجالِ إذا وَصَلوا إلى القَضاءِ والقَدَرِ

---

(١) هو الجيلاني ، أحد العُلماء الزُّهّاد ، له كتاب « الغُنْية » ، وهو مطبوعٌ مشهورٌ ؛ توفي سنة (٥٦١ هـ) .
تَرْجَمَه الذهبيُّ في « سير أعلام النبلاء » (٢٠ / ٤٥١) وختم ترجمتَه بقولِه :
« وفي الجملةِ : الشيخُ عبدُ القادر كبيرُ الشَّأْنِ ، وعليه مآخِذُ في بعضِ أقوالِه ودَعاويه ، واللَّهُ الموعِدُ ، وبعض ذلك مكذوبٌ عليه » .

(٢) يُلاحَظُ أنّه صدّر العبارةَ بصيغة التمريضِ .

أَمْسَكُوا [١] ، إلا أنا ؛ فإني انفتَحَتْ لي فيه رَوْزَنَةٌ [٢] ، فنازَعْتُ أقْدارَ الحقِّ للحَقِّ ، والرّجلُ مَنْ يكونُ منازِعًا للقَدَرِ ، لا مَنْ يكونُ مُوافقًا للقَدَرِ [٣] .

---

(١) وهو الصوابُ ؛ إذ ينبغي عدمُ الاسترسال في مسائل القدر ، كما صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « **إذا ذُكر القَدَر فأمسكوا** » .
انظر تخريجه في « الصحيحة » (٣٤) .

(٢) هي كالنافذةِ .

(٣) وفي « مجموع الفتاوى » (٨ / ٥٤٧) جوابٌ مُفَصَّل على هذه الكلمةِ ، أَنْقله بِنَصِّهِ لتمام الفائدةِ :
« الحمدُ للَّهِ ... وبعد ؛ فإنَّ جميع الحوادث كائنةٌ بقضاءِ اللَّهِ وقَدَرِه ، وَقد أَمَرَنا اللَّهُ سُبحانه أن نُزيلَ الشرَّ بالخير بحَسَبِ الإمكانِ ، ونُزيلَ الكُفرَ بالإيمانِ ، والبِدْعَة بالسُّنَّةِ ، والمعصيةَ بالطاعةِ مِنْ أنفسِنا ومِنْ عِنْدِنا ، فكُلُّ مَن كَفَر أو فَسقَ أو عصى فعليه أن يتوب وإنْ كانَ ذلك بقَدر اللَّهِ ، وعليه أنْ يأمُرَ غَيْرَه بالمعروف وينهاهُ عن المنكرِ بحَسَبِ الإمكانِ ، ويجاهِدَ في سبيل اللَّهِ ، وإن كان ما يَعْمَلُهُ مِنَ المنكرِ والكُفرِ والفسوقِ والعصيانِ بقَدَرِ اللَّهِ ، ليسَ للإنسانِ أنْ يَدَعَ السَّعيَ فيما ينفعُه اللَّهُ به مُتَّكلًا على القَدَرِ ، بل يفعلُ ما أمَرَ اللَّهُ ورسولُه، كما روى مسلمٌ في « صحيحه » [١] عن النبي ﷺ أنه قال : « **المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللَّهِ مِنَ المؤمنِ الضَّعيفِ ، وفي كُلٍّ خير ، احرِصْ على ما ينفعُكَ ، واستعِنْ باللَّهِ ولا تَعجَزنَّ ، وإنْ أصابَكَ شيءٌ فلا تَقُلْ : لو أنّي فَعَلْتُ كذا لكان كذا وكذا ، ولكِن قُلْ : قَدَّرَ اللَّهُ وما شاءَ فَعَلَ ، فإنَّ (لو) تفتحُ عملَ الشّيطان** » .
فأمرَ النبيُّ ﷺ المسلمَ أنْ يحرِصَ على ما ينفعُه ، والذي ينفَعُهُ يحتاج إلى مُنازَعةِ شياطين الإنْسِ والجنِّ ، ودَفْعِ ما قُدِّرَ مِنَ الشرِّ بما قَدَّره اللَّهُ مِنَ الخير .
وعليه مع ذلك أنْ يستعين باللَّهِ ؛ فإنه لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا به ، وأن يكون عملُه خالِصًا للَّهِ ، فإنَّ اللَّه لا يقْبلُ مِنَ العمل إلا ما أُريدَ به وَجْهُهُ ، وهذا حقيقةُ قولِك : ﴿ **إيّاكَ نعبد** ﴾ ، والذي قَبْلَهُ حقيقةُ ﴿ **وإيّاكَ نستعينُ** ﴾ [الفاتحة : ٤] ، فعليه أنْ يعبُدَ اللَّهَ بِفعلِ المأمورِ وتَرْكِ المحظورِ ، وأنْ يكون مُستعينًا باللَّهِ على ذلك .
وفي عبادة اللَّه وطاعتِهِ فيما أَمَر إزالةُ ما قَدَّر من الشرِّ بما قدَّر مِنَ الخيرِ ، ودَفْعُ ما يريدُه الشّيطانُ ويَسْعى فيه مِنَ الشرِّ قبلَ أنْ يَصِلَ بما يدفعُهُ اللَّهُ به مِنَ الخيرِ .
قال اللَّهُ تعالى : ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النّاسَ بعضَهم بِبَعْضٍ لَفَسدتِ الأَرْضُ** ﴾ [البقرة : ٢٥١] ، كما يدفَعُ شرَّ الكفّارِ والفُجّارِ الذي في نفوسهم والذي سَعوا فيه بالحقِّ ، كإعدادِ القُوّةِ ورباطِ الخيلِ ، وكالدّعاءِ ، والصَّدَقةِ اللذين يدفعانِ البلاءَ كما جاءَ في الحديث : « **إنَّ الدّعاءَ والبلاءَ** =

....

(١) برقم : (٢٦٦٤) .

والذي ذكَره الشّيخُ رحِمَهُ اللَّهُ هو الذي أمرَ اللَّهُ به ورسولُه .

= ليلتقيانِ فيعتلِجانِ بينَ السّماءِ والأرْضِ » [(١)] .

فالشرُّ تارةً يكونُ قد انعقدَ سَببُهُ وخِيفَ فَيَدْفَعُ وُصولَهُ ، فَيَدْفَعُ الكفَّارَ إذا قَصَدُوا بلادَ الإسلامِ ، وتارةً يكون قد وُجدَ فَيُزالُ وَتُبدَّلُ السيئاتُ بالحسناتِ .

وكلُّ هذا مِنْ بابِ دَفْعِ ما قُدِّرَ مِنَ الشرِّ بما قُدِّرَ مِنَ الخَيْرِ ، هذا واجِبٌ تارةً ومستَحَبٌّ تارةً .

فالذي ذَكَرَهُ الشيخُ رحمه اللَّه هو الذي أمرَ اللَّهُ به ورسولُه .

والمقصودُ مِنْ ذلك : أنَّ كثيرًا مِنْ أهلِ السُّلوكِ والإرادةِ يشهدونَ ربوبيّة الربِّ ، وما قَدَّرَهُ مِنَ الأمورِ التي يَنْهى عنها فيقفونَ عِنْدَ شهُودِ هذه الحقيقة الكونيّةِ ، ويَظُنّونَ أنَّ هذا مِنْ بابِ الرّضا بالقضاءِ والتّسليمِ !

وهذا جَهْلٌ وضَلالٌ قد يُؤدي إلى الكُفْرِ والانسلاخِ مِنَ الدّين ، فإنَّ اللّهَ لم يَأمُرْنا أنْ نَرضَى بما يَقَعُ مِنَ الكُفْرِ والفسوقِ والعصيانِ ، بل أَمَرَنا أنْ نكرَهَ ذلك ونَدْفَعَهُ بحَسَبِ الإمكانِ ، كما قال النبي ﷺ : « **من رأى منكم مُنكرًا فليغيِّرْهُ بيدِهِ ، فإنْ لم يَسْتَطِعْ فبلسانِهِ ، فإنْ لم يَستَطِع فَبِقَلْبِهِ ، وذلك أضعَفُ الإيمانِ** » [(٢)] .

واللَّهُ تعالى قد قال : ﴿ **ولا يَرْضى لِعِبادِه الكُفْرَ** ﴾ [الزمر : ٧] ، وقال : ﴿ **واللَّهُ لا يُحِبُّ الفساد** ﴾ [البقرة : ٢٠٥] فكيفَ يأمُرُنا أن نَرْضَى لأنفُسِنا ما لا يرضاهُ لنا ، وهو جَعَلَ ما يكونُ مِنَ الشرِّ مِحنَةً لنا وابتلاء كما قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنا بعضَكم لبعضٍ فتنةً أتصْبِرون** ﴾ [الفرقان : ٢٠] ؟!

وقال تعالى بعدَ أمره بالقتالِ : ﴿ **ذلك ولو يشاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ منهم ولكن ليبلو بَعضَكم ببعضٍ والذين قُتِلوا في سبيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أعمالهم** ﴾ [محمد : ٤] .

وفي « صحيح مسلم » [(٣)] عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « **والذي نَفسي بيدِه ؛ لا يَقْضي اللَّهُ للمؤمنِ قضاءً إلا كانَ خَيْرًا له ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن ؛ إنْ أصابَتْهُ سرّاءُ شكرَ فكانَ خيرًا له ، وإنْ أصابتهُ ضرّاء صَبرَ فكان خيرًا له** » .

فالمؤمنُ إذا كانَ صَبُورًا شَكُورًا يكونُ ما يُقْضَى عليه مِنَ المصائبِ خيرًا له ، وإذا كانَ آمرًا بالمعروف =

....

(١) رواه الحاكم (١ / ٤٩٢) ، والبزّار (٢١٦٥) ، والخطيب (٨ / ٤٥٣) ، وابن الجوزي في « الواهيات » (١٤١١) عن عائشة .

ويشهد له قوله ﷺ : « **لا يَرُدُّ القضاءَ إلّا الدُّعاءُ** » رواه الترمذي (٢١٤٠) والطحاوي في « المشكل » (٤ / ١٦٩) عن سلمان بسندٍ فيه ضعف أيضًا .

وله شواهد أُخرى ، فانظر « الصحيحة » (١٥٤) .

(٢) رواه مسلم (٤٩) .

(٣) (برقم : ٢٩٩٩) وهي رواية من المصنِّف بالمعنى .

لكنْ كثيرٌ مِنَ الرّجالِ غَلِطوا فيه ، فإنّهم قد يَشْهَدونَ ما يُقَدَّرُ على أحدِهم مِنَ المعاصِي والذّنوبِ ، أَوْ مَا يُقَدَّرُ على النّاسِ من ذلك ، بل مِنَ الكُفْرِ ، ويَشهَدُونَ أنَّ هذا جارٍ بمشيئَةِ اللَّهِ وقَضائِهِ وقَدرِهِ ، داخلٌ في حُكمِ رُبوبِيَّته ومُقْتَضى مشيئَتِهِ ، فيَظُنُّونَ الاستسلامَ لذلك وموافَقَتَهُ والرِّضا به ونَحْوَ ذلكَ دِينًا وطَريقًا وعبادةً ، فيُضَاهِئونَ المُشرِكينَ الذين قالوا : ﴿ **لو شاءَ اللَّه ما أشْرَكنا ولا آباؤُنا ولا حرَّمْنا مِنْ شَيءٍ** ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

وقالوا : ﴿ **أَنُطعِمُ من لو يشاءُ اللَّه أطعَمه** ﴾ [يس : ٤٧] .

وقالوا : ﴿ **لو شاءَ الرّحمَنُ ما عَبَدْناهم** ﴾ [الزخرف : ٢٠] .

ولو هُدُوا لعَلِموا أنَّ القَدَر أُمِرْنا أنْ نَرْضى به ، ونَصْبِرَ على مُوجبهِ في المصائِبِ التي تُصِيبُنا ، كالفَقْرِ والمَرَضِ والخَوفِ .

قال اللَّه تعالى : ﴿ **ما أَصابَ من مُصيبةٍ إلا بإذنِ اللَّهِ ومَنْ يُؤمِنْ باللَّهِ يَهْدِ قلبَه** ﴾ [التغابن : ١١] .

قال بعض السَّلَف [1] : هو الرّجلُ تصيبُه المصيبةُ فيَعْلَمُ أنّها مِنْ

= ناهيًا عن المنكرِ مُجاهِدًا في سبيل اللَّهِ ؛ كانَ ما قُدِّرَ له مِنَ الكفّارِ سببًا [1] للخير في حَقّه .
وكذلك إذا دعاه الشيطانُ والهوى كان ذلك سَببًا لِمَا حصلَ له مِنَ الخيرِ ، فيكونُ ما يُقدّرُ مِنَ الشرِّ إذا نازعه ودافعهُ كما أمَرهُ اللَّهُ ورسوله سببًا لما يَحصلُ له مِنَ البرِّ والتّقوى وحصول الخيرِ والثواب وارتفاع الدّرجات .
فهذا وأمثالُه مما يُبيِّنُ معنى هذا الكلام . واللَّه أعلم » . اهـ .

(١) هو علقمةُ ، فيما أخرجه عنه عَبدُ بنُ حُمَيد ، وابنُ المُنذر ، والبيهقي في « شُعب الإيمان » كما في « الدر المنثور » (٨ / ١٨٣ - ط ٢) .

....

(١) في الأصل : « سبب » !

عِنْدِ اللَّهِ فَيَرْضَى ويُسلِّم .

وقال تعالى : ﴿ **ما أَصابَ مِن مصيبةٍ في الأرضِ ولا في أنفُسِكم إلا في كتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إنَّ ذلك على اللَّهِ يسيرٌ * لكي لا تأسَوا على ما فاتكم ولا تفرحُوا بما آتاكم** ﴾ [الحديد : ٢٢ - ٢٣] .

وفي « الصحيحين »[١] : عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « **احتَجَّ آدمُ وموسى ، فقال موسى : أَنْتَ آدمُ الذي خَلَقَكَ اللَّهُ بيدِه ، ونَفَخَ فيك مِن روحِه وأسجَد لك ملائكَتَه ، وعلَّمَك أسماءَ كُلِّ شيءٍ ، فلماذا أَخْرَجْتَنا ونَفْسَك مِنَ الجنَّة ؟ فقال آدمُ : أنتَ موسى الذي اصطفاك اللَّهُ برسالاته وبكلامِهِ ، فَهَل وَجَدْتَ ذلك مكتوبًا عليَّ قبلَ أنْ أُخْلَقَ ؟ قال : نعم . قال : فَحَجَّ آدمُ موسى** » .

وآدم عليه السلامُ لم يَحْتَجَّ على موسى بالقَدَر ظنًّا أنَّ المُذنِبَ يحتَجُّ بالقَدَرِ ، فإنَّ هذا لا يقولُه مسلمٌ ولا عاقلٌ ، ولو كان هذا عُذْرًا لكانَ عُذْرًا لإبليسَ ، وقومِ نوحٍ ، وقومِ هودٍ ، وكلِّ كافرٍ .

ولا موسى لام آدم أيضًا لأجلِ الذّنْبِ ، فإنَّ آدمَ قد تابَ إلى ربِّه فاجتَباهُ وهَدَى ، ولكِنْ لامَهُ لأجلِ المصيبةِ التي لَحِقَتهُم بالخطيئةِ ، ولهذا قال : « **فلماذا أَخْرَجْتَنا ونَفسَك مِنَ الجنّةِ ؟** » فأجابه آدمُ : « **إنَّ هذا كانَ مكتوبًا عليَّ قبلَ أنْ أُخلَقَ** »[٢] .

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠٩) ومسلم (٢٦٥٢) ومالك (٢ / ٨٩٨) وأبو داود (٤٧٠١) والترمذي (٢١٣٥) عن أبي هريرة .

وفي الباب عن عدة من الصحابة ، فانظر « الصحيحة » (٩٠٩) و (١٧٠٢) لشيخنا الألباني .

(٢) « ولم يَقُلْ : لماذا خالَفْتَ الأمرَ ؟ والناسُ مأمورون عند المصائِبِ التي تصيبُهم بأفعال الناس أو بغير أفعالهم بالتسليم للقَدَر ، وشهود الربوبيّة » . =

فكانَ العملُ والمصيبةُ المترتِّبَةُ عليه مُقدَّرًا ، وما قُدِّرَ من المصائبِ يجِبُ الاستسلامُ له ، فإنه مِنْ تمامِ الرّضا باللَّه رَبًّا .

وَأمّا الذّنوبُ ؛ فليسَ للعَبْدِ أَنْ يُذنِبَ ، وإذا أذنبَ فعليهِ أَنْ يستَغفِرَ ويتوبَ ، فيتوبَ مِنْ المعائِبِ ، ويصبرَ على المصائب .

قال تعالى : ﴿ فاصبِر إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ واستَغفِرْ لذنبِكَ ﴾ [غافر : ٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُم كَيْدُهُم شَيْئًا ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

وقال : ﴿ وإنْ تَصْبِروا وتَتَّقوا فإنَّ ذلك مِن عَزمِ الأُمورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٦] .

وقال يوسفُ عليه السلامُ : ﴿ إنَّه مَنْ يَتَّقِ ويَصْبِرْ فإنَّ اللَّه لا يُضيعُ أَجْرَ المحْسِنينَ ﴾ [يوسف : ٩٠] .

= كما قال المُصَنِّف في رسالته « الاحتجاج بالقدر » (ص ٢٦) التي بناها على شرح هذا الحديث .
وانظر لزيادة الفائدة « مرقاة المفاتيح » (١ / ١٢٣ - ١٢٤) للشيخ علي القاري .

١ - فصل

[وجوبُ الأَمرِ بالمعروفِ]

وكذلك ذنُوبُ العبادِ ؛ يَجِبُ على العبدِ فيها أنْ يأمُرَ بالمعروفِ وينْهَى عن المُنْكَر بحسبِ قُدْرتِه ، ويُجاهِدَ في سبيلِ اللّهِ الكُفّارَ والمُنافقينَ ، ويُوالي أولياءَ اللّهِ ، ويُعادي أعداءَ اللّهِ ، ويُحِبَّ في اللّهِ ويبغِضَ في اللّهِ ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيّها الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُم أولياءَ تُلقُونَ إليهم بالمَوَدَّةِ وقَدْ كفروا بمَا جاءَكُم مِنَ الحَقِّ يُخرِجُونَ الرَّسُولَ وإيَاكُم أن تُؤمنوا باللّهِ رَبِّكُم إن كُنتُم خَرَجتُم جهادًا في سبيلي وَابتغاءَ مرضاتي تُسرُّونَ إليهِم بالمَوَدَّةِ وَأنا أعلمُ بِمَا أَخفيتُم ومَا أعلَنْتُم ومَن يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبيل * إن يَثقفُوكُم يَكُونُوا لَكُم أعداءً ويَبْسُطُوا إليكُم أَيديَهُم وأَلسنَتَهُم بالسُّوءِ وَوَدُّوا لَو تَكفُرونَ * لَن تَنفعَكُم أرْحَامُكُم ولا أَولادُكُمْ يومَ القِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُم واللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصير * قد كانت لكُم أُسوَةٌ حَسَنَةٌ في إبراهيمَ والَّذينَ مَعَهُ إذْ قَالُوا لِقَومِهِم إنا بُرَآءُ منكم وَمِمّا تَعْبُدونَ مِن دُونِ اللّهِ كَفرنا بكُم وبَدا بَيْننا وبَيْنَكُم العَداوَةُ والبَغْضاءُ أَبَدًا حَتّى تُؤمِنُوا باللّهِ وَحدَهُ ﴾ [الممتحنة : ١ - ٤] .

وقال تعالى : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنونَ باللّهِ واليومِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّهَ ورَسُولَهُ ولَو كانُوا آباءَهم أو أَبْنَاءَهُم أو إخوَانَهُم أَو عَشيرَتَهُم أُولئكَ كَتَبَ في قُلوبِهِمُ الإيمانَ وأيَّدَهُمْ برُوحٍ منه ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

وقال : ﴿ أَفَنَجْعَلُ المُسلِمينَ كَالمجُرِمينَ ﴾ [القلم : ٣٥] .

وقال : ﴿ أَم نَجْعَلُ الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ كالمُفسدينَ في الأَرضِ أَمْ نَجْعَلُ المُتَّقِينَ كالفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذينَ اجْتَرحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُم كالَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ سَواءً مَحْيَاهُم ومَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحكُمونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأعمَى والبَصِيرُ * ولا الظُّلُمَاتُ ولا النُّورُ * ولا الظلُّ ولا الحَرُورُ * وما يَستَوِي الأَحياءُ ولا الأَمواتُ ﴾ [فاطر : ١٩- ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّه مَثلًا رَجلًا فيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَل يَستوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [الزُّمَر : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّه مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ على شَيءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنهُ سِرًّا وجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الحَمدُ للَّهِ بل أَكثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ على شَيءٍ وهُوَ كَلٌّ على مَوْلاهُ أَينما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بخيرٍ هَلْ يَستوي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بالعَدل وهُوَ على صِراطٍ مُستقيمٍ ﴾ [النَّحل : ٧٥ - ٧٦] .

وقال تعالى : ﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وأَصْحَابُ الجَنَّةِ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمُ الفَائِزونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] .

ونظائرُ ذلك مِمَّا يُفَرِّقُ اللَّهُ فيه بينَ أَهْلِ الحقِّ والباطِلِ ، وأهلِ الطَّاعةِ وأَهلِ المعصيةِ ، وأَهلِ البِرِّ وأَهْلِ الفُجورِ ، وأهلِ الهُدى

والضَّلال ، وأهلِ الغيِّ والرشادِ ، وأهل الصّدق والكذِبِ .

فَمَن شَهِدَ الحقيقةَ الكونِيَّةَ دونَ الحقيقة الدينيّة ، سوَّى بين هذه الأَجناسِ المختلفةِ التي فرَّقَ اللَّهُ بينها غاية التفريقِ ، حتى تؤولَ به هذه التسويةُ إلى أَنْ يُسوِّيَ بين اللَّهِ وبين الأصنام ! كما قال تعالى عنهم : ﴿ تاللَّهِ إنْ كُنّا لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ * إذ نُسوِّيكم بربِّ العالمين ﴾ [الشعراء : ٩٧ - ٩٨] .

بل قد آل الأمرُ بهؤلاءِ إلى أَنْ سَوّوا اللَّهَ بكلِّ موجودٍ ، وجَعَلوا ما يستَحقُّهُ مِنَ العبادةِ والطّاعةِ حَقًّا لكلِّ موجودٍ ، إِذ جَعَلوهُ هو وجودَ المخلوقاتِ [1] !

وهذا من أعظمِ الكُفرِ والإلحادِ بربِّ العبادِ .

وهؤلاء يَصِلُ بهم الكُفْرُ إلى أَنَّهُم لا يَشهَدونَ أَنَّهُم عبادٌ ؛ لا بِمعنَى أَنَّهُم مُعَبَّدون ، ولا بمعنى أنَّهم عابِدُون ، إذ يَشْهَدُون أَنْفُسَهُم هي الحقَّ ، كما صَرَّحَ بذلك طواغيتُهُم ؛ كابن عَرَبيّ [2] صاحِبِ « الفُصُوص » [3] وأمثالِه المُلحِدينَ المُفتَرين ؛ كابنِ سبعينَ [4] وأَمثاله ،

(١) وهم أهلُ وحدة الوجودِ ، عياذًا باللَّه .

(٢) هو مُحيي الدِّين (!) ابن عربي ، المتوفى سَنَةَ (٦٣٨ هـ) ، تُنظر لمعرفة مقالات أهل العلم فيه رسالةُ « ابن عَرَبي عقيدته وحياته ، وأقوال العُلَماءِ فيه » للشيخ تقي الدين الفاسي - بتعليقي .

(٣) واسمُ هذا الكتاب « فصوص الحِكَم » ، فيه ألوانٌ من الكُفر والشِّرْكِ .

وللمصنِّف رحمه اللَّه ردٌ بديعٌ عليه اسمُه « الردّ الأقوم على ما في فصوص الحِكَم » مطبوع ضِمنَ « مجموع الفتاوى » (٢ / ٣٦٢ - فما بعد) .

(٤) هو عبد الحقّ بن سبعين ، المتوفى سنة (٦٦٩ هـ) ، له كلماتُ كُفرٍ معروفةٌ ، فانظر « البداية والنهاية » (١٣ / ٢٦١) و« لسان الميزان » (١ / ١٨٨) .

وانظر « مجموع الفتاوى » (٢ / ١١٥ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ٢٢٠ ، ٢٩٤) .

ويشهَدُون أنّهم هم العابدونَ والمعبودُون .

وهذا ليس بشُهودٍ لحقيقةٍ ، لا كونِيَّةٍ ولا دينيّةٍ ، بل هو ضَلالٌ وعَمىً عن شهودِ الحقيقةِ الكونيّةِ ، حيثُ جَعلوا وجودَ الخالق هو وجودَ المخلوقِ ، وجعلوا كُلَّ وصفٍ مذمومٍ وممدوحٍ نَعْتًا للخالِقِ والمخلوقِ ، إذ وجودُ هذا هو وجودُ هذا عندَهُم !

وأَمّا المؤمنون باللَّهِ ورسوله عوامُّهم وخواصُّهم ؛ الذين هم أَهلُ الكتاب ؛ كما قال النبيُّ ﷺ : « **إنَّ للَّهِ أَهْلين مِنَ النّاسِ** » .

قِيل : مَنْ هم يا رسولَ اللَّهِ ؟

قال : « أهلُ القرآن ، هم أهلُ اللَّهِ وخاصَّتُه » [١] .

فهؤلاءِ يَعلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه وخالِقُه ، وأَنَّ الخالِقَ سبحانه مبايِنٌ للمخلُوقِ ، ليس هو حالًّا فيه ، ولا متَّحِدًا به ، ولا وجودُه وجودَه .

والنَّصارى إنّما كَفَّرَهم اللَّهُ بأَنْ قالُوا بالحُلولِ واتّحادِ الربِّ بالمسيح خاصّةً ؛ فكيفَ مَنْ جَعلَ ذلك عامًّا في كلِّ مخلوقٍ ؟!

ويَعْلَمُونَ مع ذلك أنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِطَاعَتِهِ وطاعةِ رسولِه ، ونَهى عن معصيَتِهِ ومعصية رَسُولِه ، وأَنّه لا يُحِبُّ الفسادَ ، ولا يرضى لعبادِهِ الكُفْرَ ، وأَنَّ على الخلقِ أَن يعبُدُوه فيُطِيعوا أَمْرَه ، ويَسْتَعِينُوا به على

---

(١) أخرجه الطيالسي (٢١٢٤) وابن ماجه (٢١٥) وأحمد (٣ / ١٢٧ و ١٢٧ - ١٢٨ و ٢٤٢) وأبو نُعَيم في « الحلية » (٣ / ٦٣) و (٩ / ٤٠) من طرق عن عبد الرحمن بن بُديل عن أبيه ، عن أنس .

وقال البوصيري في « مصباح الزجاجة » (١ / ٧٢) : « إسنادهُ صحيحٌ » .

قلتُ : بل هُو حَسَنٌ ؛ لما قيلَ في عبد الرحمن بن بُدَيْل .

كلٌّ ذلك ؛ كما قال في فاتحةِ الكتابِ : ﴿ إيّاكَ نعبدُ وإيّاكَ نَستعينُ ﴾ .

ومن عبادتِه وطاعتِهِ : الأمرُ بالمَعروفِ والنَّهيُ عن المنكرِ بحسبِ الإمكانِ ، والجهادُ في سبيلهِ لأهلِ الكُفْرِ والنّفاقِ ، فيجتَهدُونَ في إقامةِ دينِه ، مُستَعِينين به ، دَافِعينَ مُزيلين بذلك ما قُدِّرَ مِنَ السيّئات ، دافعِينَ بذلكَ ما قَدْ يُخافُ مِنْ ذلك ، كما يُزيلُ الإنسانُ الجوعَ الحاضرَ بالأكلِ ، ويدفعُ به الجوعَ المستقبلَ ، وكذلك إذا آنَ أَوَانُ البَرْدِ دَفعَه باللّباسِ ، وكذلك كلُّ مطلوبٍ يُدْفَعُ به مكروهٌ ، كما قالوا للنبيِّ ﷺ : **يا رسولَ اللّهِ ! أرأيتَ أدويةً نَتَداوى بها ، ورقىً نَسْتَرقي بها ، وتُقاةً نَتّقي بها ؛ هل تَرُدُّ من قَدَرِ اللّهِ شيئًا ؟ فقال : « هِي مِنْ قَدَرِ اللّهِ »** [1].

وفي الحديثِ : « **إنَّ الدّعاءَ والبَلاءَ لَيَلْتَقِيانِ ، فَيَعتَلِجانِ بينَ السّماءِ والأرضِ** » [2] .

---

(١) رواه الترمذي (٢١٤٨) وابن ماجه (٣٤٣٧) والحاكم (٤ / ١٩٩) وأحمد (٣ / ٤٢١) والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (ص ٩٤ - ٩٥) من طرق عن الزُّهري ، عن أبي خِزامَةَ ، عن أبيه .
وأبو خزامة مجهولٌ .
وله شاهدٌ في « معجم الطبراني الكبير » (١٢٧٨٤) من طريق صالح المُرّي ، عن قتادة ، عن زُرارة ابن أوفى عن ابن عباس .
قال الهيثمي في « المجمع » (٥ / ٨٥) :
« وفيه صالحُ بن بشير المُرّي ، وهو ضعيفٌ » .
قلت :
وكذا عنعنةُ قتادَة فهو مُدلّس .
وللحديثِ طُرُقٌ أخرى لا تخلو مِن وهم للرواةِ أو خَطَأ ، فانظرها في « تخريج أحاديث مشكلة الفقر » (ص ١٣ - ١٥) لشيخنا الألباني .
وقارن بـ « الأَمراض والكفّارات .. » (ص ١٦٤ - ١٦٧) للضياء المقدسيّ ، بتعليق أَخينا الشيخ أَبي إسحاق الحُويني .
(٢) سبق تخريجه (ص ٣٣) .

فهذا حالُ المؤمنين باللَّه ورسوله ، العابدين للَّه ، وكلُّ ذلك مِنَ العبادَةِ .

وهؤلاءِ الذين يَشهَدونَ الحقيقةَ الكونيَّةَ - وهي رُبُوبيَّتُه تعالى لِكُلِّ شيء - ويجعَلُون ذلك مانعًا من اتِّباع أَمْرِهِ الديني الشَّرعيّ على مراتب في الضّلالِ :

فغلاتهم يجعلون ذلك مُطْلقًا عامًّا ، فيَحتَجُّونَ بالقَدَرِ في كُلِّ ما يُخالفون فيه الشريعةَ .

وقولُ هؤلاءِ شرٌّ من قولِ اليهودِ والنَّصارى ، وهو مِن جِنسِ قولِ المشركين الذين قالوا : ﴿ **لو شاءَ اللَّه ما أشْرَكنا ولا آباؤنا ولا حَرَّمنا مِنْ شَيءٍ** ﴾ [الأنعام : ١٤٨] ، وقالوا : ﴿ **لو شاءَ الرّحمَن ما عَبَدْناهم** ﴾ [الزخرف : ٢٠] .

وهؤلاءِ مِن أعظمِ أهلِ الأرضِ تَناقُضًا ، بل كُلُّ مَنِ احتَجَّ بالقَدَرِ فإنَّه متناقضٌ ، فإنه لا يُمكِنُ أَن يُقَرَّ كُلُّ آدَمِيٍّ على ما فَعَلَ ، فلا بُدَّ إذا ظَلَمَهُ ظالِمٌ ، أو ظَلَمَ النّاسَ ظَالِمٌ ، وسَعى في الأرضِ بالفسادِ ، وأخذَ يَسفِكُ دماءَ النّاسِ ، ويستحلُّ الفروجِ ، ويُهلِكُ الحَرْثَ والنَّسْلَ ، ونَحْوُ ذلك من أنواعِ الضَّرَرِ التي لا قِوامَ للنّاسِ بها ، أَنْ يَدْفَعَ هذا القَدَرَ ، وأَن يعاقِبَ الظّالِمَ بما يَكُفُّ عُدوانَه وعُدوانَ أمثَالِه ، فيقالُ له : إن كان القَدَرُ حُجَّةً ؛ فَدَعْ كلَّ أحدٍ يفعلُ ما يشاءُ بك وبغيرك ! وإن لم يَكُن حُجَّة بَطَلَ أَصْلُ قولِكَ : إنَّ القَدَرَ حُجَّةٌ [1] !!

---

(١) وهي حُجَّةٌ عقليَّةٌ متينةٌ تنقضُ قولَهم من أساسِه .

وأصحابُ هذا القولِ - الذين يَحتَجّونَ بالحقيقةِ الكَوْنيَّةِ - لا يُطَرِّدون هذا القولَ ولا يلتَزِمُونَه ، وإنّما هم يَتَّبِعُونَ آراءَهم وأَهواءهم ، كما قال فيهم بعضُ العُلماءِ :

أَنْتَ عِنْدَ الطّاعةِ قَدَرِيّ ، وعند المعصيَةِ جَبْرِيٌّ ، أيّ مَذْهَبٍ وافَقَ هواكَ تَمَذْهَبْتَ به [1] !!

ومنهم صنفٌ يدَّعون التّحقيقَ والمعرفةَ ، فيَزْعُمُونَ أَنَّ الأمرَ والنَّهيَ لازمٌ لِمَن شهدَ لِنَفسِهِ فعلًا ، وأثبتَ له صنعًا ، أمّا مَنْ شَهِدَ أَنَّ أفعاله مخلوقةٌ ، أو أنَّه مجبورٌ على ذلك ، وأنَّ اللّهَ هو المُتَصرِّفُ فيه كما يُحَرِّكُ سائرَ المتحرِّكاتِ ؛ فإنَّهُ يَرتَفِعُ عنه الأمرُ والنَّهيُ ، والوَعدُ والوعيدُ .

وقد يقولون : مَن شَهِدَ الإرادةَ سَقَطَ عنه التَّكليفُ ، ويَزعُمُ أَحدُهُم أنَّ الخَضِرَ سَقَطَ عنه التكليفُ لشُهودِه الإرادةَ !

فهؤلاء لا يُفَرِّقون بين العامة والخاصَّةِ الذين شَهِدوا الحقيقةَ الكونيَّةَ ، فَشَهِدوا أَنَّ اللّهَ خالقُ أفعالِ العبادِ ، وأَنَّهُ يُدَبِّرُ جميعَ الكائنات .

وقد يُفرِّقونَ بينَ مَن يَعْلَمُ ذلِك عِلْمًا وبين مَن يراه شُهودًا ، فلا يُسْقِطون التكليفَ عَمَّنْ يُؤْمِنُ بذلك ويَعْلَمُه فقط ، ولكِنْ يُسْقطونَه عَمَّن يشهَدُه ، فلا يَرى لنفسِهِ فِعلًا أصلًا .

---

(١) وهكذا - في مسائل الفقه - كثيرٌ من المشايخِ ، وأشباه المُتَعَلِّمين ، وأنصاف المُثَقَّفين ، حتى المتفقهة العَصْرانيِّينَ ؛ نرى هؤلاء جميعًا لا يستقرُّون على قولٍ ، ولا يَقِرُّونَ على قاعدةٍ : اليوم يأْخذونَ فقهَ المذهبِ ، وغدًا يتركونَه إلى العَمَل بالدليل ، وفي اليوم الثالث يَتَّبِعُونَ هوى العامّةِ !!
فلا قُوَّةَ إلا باللّه .

وهؤلاء لا يَجْعلونَ الجَبْرَ وإثباتَ القَدَرِ مانِعًا مِنَ التكليفِ على هذا الوجه .

وقد وقع في هذا طوائفُ مِنَ المنتَسِبينَ إلى التَّحقيقِ والمعرفةِ والتّوحيدِ .

وسببُ ذلك : أنَّه ضاقَ نِطاقُهم عن كَونِ العَبدِ يُؤمَرُ بما يُقَدَّرُ عليه خلافُه ، كما ضَاقَ نِطاقُ المعتزلَةِ ونَحوِهم مِنَ القَدَريَّةِ عن ذلك .

ثم المعتزلةُ أثبتَت الأمرَ والنَّهيَ الشَّرعيين دونَ القَضاءِ والقَدَرِ الَّذي هو إرادةُ اللَّهِ العامَّةُ وخَلْقُه لأفعالِ العبادِ .

وهؤلاء أَثبَتُوا القَضاءَ والقدرَ ، ونَفَوا الأمرَ والنَّهيَ في حَقِّ مَن شَهِدَ القَدَرَ ، إذ لم يُمْكِنْهُم نَفْيُ ذلك مُطْلقًا .

وقولُ هؤلاءِ شَرٌّ مَن قَولِ المعتزلةِ ، ولهذا لم يَكُن في السَّلفِ مِن هؤلاء أحدٌ .

وهؤلاء يَجعلونَ الأمرَ والنَّهيَ للمَحجوبينَ الذين لم يَشهَدُوا هذه الحقيقة الكونيَّةَ ، ولهذا يجعلونَ مَن وَصَلَ إلى شهود هذه الحقيقة يَسْقُطُ عنه الأمرُ والنَّهيُ ، ويقولون : إنّه صارَ مِنَ الخاصَّةِ !! وربما تأَوّلوا على ذلك قولَه تعالى :

﴿ واعبُد ربَّكَ حتَّى يَأْتيَكَ اليقينُ ﴾ [الحِجْر : ٩٩] ، فاليقينُ عندَهُم ، هو معرفةُ هذه الحقيقةِ !

وقولُ هؤلاء كُفْرٌ صريحٌ ؛ وإن وَقَع فيه طوائفُ لم يعلموا أنّه كفرٌ ؛ فإنه قد عُلِمَ بالاضطرارِ مِن دِينِ الإسلام ، أَنَّ الأمرَ والنَّهيَ

لازِمانِ لِكُلِّ عبدٍ ما دامَ عقلُه حاضِرًا إلى أَنْ يموتَ ، لا يَسْقُطانِ عنه ، لا بشهُودِهِ القَدَرَ ولا بغيرِ ذلك .

فَمَن لم يَعرِفْ ذلك عُرِّفَهُ وبُيِّـنَ له ، فإن أَصَرَّ على اعتقادِ سقوطِ الأمرِ والنهي فإنّه يُقتَلُ [(١)] .

وقد كَثُرَتْ مِثلُ هذه المقالاتِ في المُستَأخِرين .

وأمَّا المتقَدِّمونَ مِن هذه الأُمةِ فلم تَكُنْ هذه المقالاتُ معروفةً فيهم .

وهذه المقالاتُ هي مُحَادَّةٌ للَّهِ ورسولِهِ ، ومُعاداةٌ له ، وصدٌّ عن سبيلِه ، ومشاقَّةٌ له ، وتكذيبٌ لرُسُلِه ، ومُضَادَّةٌ له في حُكمِه ، وإنْ كان مَن يقولُ هذه المقالاتِ قد يَجْهَلُ ذلك ، ويعتقِدُ أنَّ هذا الذي هو عليه هو طريقُ الرّسولِ وطريقُ أولياء اللَّهِ المُحَقِّقين ؛ فهو في ذلك بمنزلَةِ مَن يعتقِدُ أَنَّ الصَّلاةَ لا تَجِبُ عليه لاستغنائِه عنها بما حصلَ له مِنَ الأحوالِ القلبيةِ ، أو أَنَّ الخَمْرَ حلالٌ له ، لكَوْنِه مِنَ الخواصِّ الذينَ لا يَضُرُّهم شُرْبُ الخَمْرِ ، أو أنَّ الفاحِشَةَ حلالٌ له ، لأنَّه صارَ كالبَحرِ لا تكدِّرُه الذنوبُ ، ونحوُ ذلك !!

ولا رَيبَ أَنَّ المشركينَ الذين كذَّبوا الرّسولَ يَتَردَّدون بين **البِدعةِ المخالفةِ لِشَرْعِ اللَّهِ** وبين الاحتجاجِ بالقَدَرِ على مخالفةِ أَمرِ اللَّهِ .

---

(١) وهذه قاعدةٌ هامّةٌ عند أهل السُّنَّة قبل الحكمِ بالكُفر ، وهي إقامةُ الحُجَّة ، وتوضيحُ البيان ، فإذا كنت ذاكرًا لها سَهُلَ عليك - بتوفيق اللّه تعالى - حلُّ كثيرٍ من الإشكالات الفِكريّة التي زلَّت فيها أقدامُ كثيرٍ من الشباب العاطفي المتحمِّس .
وانظر مقالتي « حقيقة الكفر بين الشرع والعاطفة » في « مجلة المجاهِد » الصادرة في بِشاور - باكستان ، قبل سَنَوات .

فهؤلاءِ الأصنافُ فيهم شَبَهٌ مِنَ المُشركين ؛ لأنَّهم إمّا أَنْ يَبتَدِعُوا ، وإمَّا أَنْ يَحتَجُّوا بالقَدَرِ ، وإمّا أن يجمَعوا بينَ الأمرين ؛ كما قال تعالى عن المُشركين : ﴿ **وإذا فَعَلُوا فاحشةً قالوا وَجَدْنا عليها آباءنا واللَّه أمرنَا بها قُل إنَّ اللَّه لا يَأمُرُ بالفَحشاء أَتقولونَ على اللَّه ما لا تعلمون** ﴾ [الأعراف : ٢٨] .

وكما قال تعالى عنهم : ﴿ **سيقولُ الذين أَشرَكُوا لو شاءَ اللَّه ما أشرَكنا ولا آباؤنا ولا حَرَّمنا مِنْ شيءٍ** ﴾ [الأَنعام : ١٤٨] .

وقد ذُكِرَ عن المشركين ما ابتدَعُوه مِنَ الدّين الذي فيه تحليلُ الحرامِ والعبادةُ الَّتي لم يشرعْها اللَّهُ ، بِمِثْلِ قوله تعالى :

﴿ **وقالوا هذه أَنعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إلّا مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهم وأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهورُها وأنعامٌ لا يَذْكُرونَ اسمَ اللَّهِ عليها افتراءً عليه** ﴾ [الأَنعام : ١٣٨] ، إلى آخرِ السّورة .

وكذلكَ في سورة الأعراف في قَولِهِ : ﴿ **يا بَنِي آدَمَ لا يَفتِنَنَّكُمُ الشَّيطانُ كما أَخرجَ أَبَوَيكُم مِنَ الجنَّةِ** ﴾ ، إلى قولِهِ : ﴿ **وإذا فَعَلُوا فاحِشَةً قَالوا وَجدنا عَلَيها آباءَنَا واللَّه أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إنَّ اللَّه لا يَأمُرُ بالفَحشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعلَمُون قُل أَمَرَ رَبي بالقِسطِ وأقيموا وُجوهَكُم عِندَ كُلِّ مسجد** ﴾ ، إلى قولِه : ﴿ **وَكُلُوا واشرَبُوا ولا تُسرِفُوا إنّه لا يُحِبُّ المُسرِفينَ * قُلْ من حَرَّمَ زينةَ اللَّهِ التي أَخرجَ لعبادِهِ والطَّيباتِ من الرِّزقِ** ﴾ ، إلى قوله : ﴿ **قُلْ إنّما حَرّمَ رَبّيَ الفَواحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ والإِثمَ والبَغيَ بغيرِ الحقِّ وأَنْ تُشرِكُوا باللَّهِ ما لم يُنَزِّلْ به سُلطانًا وأَنْ تقولوا على اللَّهِ**

ما لا تَعلَمُون ﴾ [الأعراف : ٢٦ - ٣٢] .

وهؤلاء قد يُسمُّون ما أَحدثوهُ مِنَ البِدَعِ : حقيقةً ! كما يُسَمُّونَ ما يَشهَدونَ مِنَ القَدَرِ : حقيقةً !!

وطريقُ الحقيقةِ عندهم : هو السُّلوكُ الذي لا يتقَيَّدُ صاحِبُه بأَمْرِ الشّارعِ ونَهيِهِ ، ولكِنْ بما يراه ويذوقُه ويَجِدُه في قلبِهِ مع ما فيه مِنْ غَفْلَةٍ عَنِ اللَّهِ جَلَّ وعلا ، ونحوُ ذلك .

وهؤلاء لا يَحتَجُّونَ بالقَدَرِ مُطلقًا ، بل عُمْدَتُهم اتِّباعُ آرائِهِم وأَهوائهم ، وجَعْلُهم لما يَرَوْنَه ويهوونه حقيقةً ، وأَمْرُهُم باتِّباعها دونَ اتّباعِ أَمرِ اللَّهِ ورسولِهِ ، نظيرَ بدَعِ أهلِ الكلامِ مَنَ الجهمِيَّةِ وغَيرِهم الذين يَجْعلونَ ما ابتدَعُوهُ مِنَ الأقوالِ المخالفةِ للكتاب والسنَّةِ حقائقَ عقليَّةً يجبُ اعتقادها ، دونَ ما دَلَّتْ عليه السَّمعيّاتُ .

ثم الكتابُ والسنّةُ إما أَن يُحَرِّفُوا القَوْلَ فيهما عن مواضِعه ؛ وإمّا أَنْ يُعرِضُوا عنه بالكُليّة ! فلا يتَدَبَّرونَهُ ولا يعقِلُونَه ، بل يقولون : نُفَوِّضُ معناه إلى اللَّهِ !! مع اعتقادهم نقيضَ مَدْلُولِه .

وإذا حُقِّقَ على هؤلاءِ ما يَزْعُمونَه مِنَ العقليّات المخالفةِ للكتابِ والسنّةِ ؛ وُجِدَتْ جَهْلياتٍ واعتقاداتٍ فاسِدَةً [(١)] .

وكذلك أولئك إذا حُقِّقَ عليهم ما يَزْعُمونه مِنْ حقائقِ أولياءِ اللَّهِ المخالفةِ للكتاب والسنّةِ ؛ وُجِدَتْ مِنَ الأهواءِ التي يَتَّبِعُها أعداءُ اللَّهِ لا

---

(١) ما أقوى هذا الكلامَ في الردّ على من حاكَمَ (!) « **السُّنّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث** » ، فكتب بجهلٍ ! وتكلّم بجهل ! فكتابُه جَهْلٌ على جَهل !!!

أولياؤه .

وأصلُ ضَلالِ مَنْ ضَلَّ هو بتقديمِ قياسِهِ على النصِّ المنزّل مِنْ عندِ اللَّهِ ، وتقديمِ اتّباعِ الهَوى على اتّباعِ أَمْرِ اللَّهِ .

فإنَّ الذَّوْقَ والوَجْدَ ونحوَ ذلك هو بحسبِ ما يُحِبُّه العبدُ ، فكلُّ مُحِبٍّ له ذَوْقٌ وَوَجدٌ بحسبِ محبتِه ، فأَهلُ الإيمانِ لهم مِنَ الذّوقِ والوَجدِ ، مثلُ ما بيَّنَهُ النَّبيُّ ﷺ بقولِهِ في الحديثِ الصّحيح : « **ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوةَ الإيمان : مَنْ كانَ اللَّهُ ورَسُولُه أحبَّ إليه مِمّا سواهما ، ومَن كان يُحِبُّ المرءَ لا يحبُّهُ إلا للَّهِ ، ومَن كانَ يَكرَهُ أنْ يَرجعَ في الكفر بعد إِذْ أنقذَه اللَّهُ منه كما يَكْرَه أنْ يُلقَى في النّارِ** » [(١)] .

وقال ﷺ في الحديثِ الصحيحِ [(٢)] : « **ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَنْ رَضِيَ باللَّهِ ربًّا ، وبالإسلامِ دينًا ، وبمحمدٍ نبيًّا** » .

وأمَّا أَهْلُ الكُفرِ والبدَع والشهواتِ ؛ فكلٌّ بحَسبِه .

قيل لسفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ : ما بالُ أهلِ الأهواءِ لهم محَبَّةٌ شديدةٌ لأهوائِهم ؟! فقال : أَنَسِيتَ قولَهُ تعالى : ﴿ **وأُشرِبُوا في قلوبهم العِجْلَ بِكُفرِهم** ﴾ [البقرة : ٩٣] ، أو نحوَ هذا مِن الكلامِ .

فعبَّادُ الأَصنامِ يُحبُّونَ آلهتَهم ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ**

---

(١) رواه البخاري (١٦) و (٢١) و (٦٠٤١) و (٦٩٤١) ومسلم (٤٣) وابن ماجه (٤٠٣٣) والنّسائي (٨ / ٩٤ - ٩٦) والتّرمذي (٢٦٢٦) وأحمد (٣ / ١٠٣ و ١٧٢ و ١٧٤ و ٢٣٠ و ٢٤٥ و ٢٧٥ و ٢٨٨) والطيالسي (١٩٥٩) وابن مَنده في « الإيمان » (٢٨١) و (٢٨٢) و (٢٨٣) عن أنس رضي اللّه عنه .

(٢) رواه مسلم (٣٤) والترمذي (٢٦٢٣) وأحمد (١ / ٢٠٨) والبَغوي (١ / ٥٢) والبيهقي في « الأسماء والصفات » (٧٣) عن العبّاس بن عبد المطّلب رضي اللّه عنه .

يَتَّخِذُ مِنْ دونِ اللَّهِ أندادًا يُحِبّونَهم كحُبِّ اللَّهِ والذينَ آمنوا أَشَدُّ حُبًّا للَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

وقال : ﴿ **فإنْ لم يَسْتَجيبُوا لك فاعلَم أنَّما يَتَّبِعونَ أَهواءَهُم ومَنْ أَضَلُّ مِمّن اتبَعَ هَواهُ بغيرِ هُدىً منَ اللَّهِ** ﴾ [القَصَص : ٥٠] .

وقال : ﴿ **إنْ يَتَّبِعُونَ إلا الظنَّ وما تَهْوَى الأَنْفُسُ ولقد جاءَهم مِنْ رَبِّهم الهُدى** ﴾ [النجم : ٢٣] .

ولهذا يميلُ هؤلاءِ إلى سماعِ الشّعرِ والأصواتِ التي تُهَيِّجُ المحبّةَ المطلَقَةَ التي لا تختَصُّ بأهْلِ الإيمانِ !! بل يشتركُ فيها مُحِبُّ الرحمَنِ ، ومُحِبُّ الأوثانِ ، ومُحِبُّ الصُّلبانِ ، ومُحِبُّ الأوطانِ ، ومُحِبُّ الإخوانِ ، ومُحِبُّ المُردانِ ، ومُحِبُّ النّسوان !

وهؤلاءِ الذين يَتَّبِعُونَ أذواقَهم ومواجيدَهُم مِنْ غير اعتبارٍ لذلك بالكتابِ والسُّنَّةِ ، **وما كان عليه سلفُ الأمَّةِ** (١) .

فالمخالفُ لِمَا بَعَثَ اللَّهُ بهِ رسولَه مِنْ عبادَته وَحدَه ، وطاعَتِهِ وطاعَةِ رَسولِه ؛ لا يكونُ مُتَّبِعًا لِدينٍ شَرَعَهُ اللَّهُ أبدًا ، كما قال تعالى : ﴿ **ثم جَعَلناكَ على شريعةٍ من الأمرِ فاتَّبِعها ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الذينَ لا يَعلَمُون * إنَّهم لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيئًا وإنَّ الظّالمينَ بَعضُهم أولياءُ بَعضٍ واللَّه وَليُّ المتَّقين** ﴾ [الجاثية : ١٨ - ١٩] .

---

(١) وهذا شرطٌ مُهِمٌّ لأُصولِ فهم الكتاب والسنّة ، ودونَه يكونُ الفهمُ سقيمًا ، والطريقُ أعوجَ عقيمًا ؛ إذْ يُتْرَكُ الفهمُ لعقولِ أهل الكلام ، أو لفهُومِ أرباب التصوُّف ، أو لأهواء أذناب العقل ، أو غير هؤلاء مِمَّن لم يُحْكِمُوا فَهْمَهم للوحيَيْنِ الشريفين بمنهاج السَّلف وطريق السلف .

بل يكونُ مُتَّبِعًا لهواهُ بغيرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ ، قال تعالى : ﴿ **أم لهم شُركَاءُ شَرَعوا لهم مِنَ الدِّينِ ما لم يَأْذَنْ به اللهُ** ﴾ [الشورى : ٢١] .

وهم في ذلك تارةً يكونونَ على بدعةٍ يُسَمونها : حقيقةً ! يُقدِّمُونَها على ما شرَعَهُ اللَّهُ ، وتارةً يَحتَجُّونَ بالقَدَرِ الكونيِّ على الشريعةِ ! كما أخبرَ اللَّهُ به عن المشركينَ كما تَقَدَّمَ .

ومِن هؤلاءِ طائِفةٌ هم أَعلاهم عِندَهُم قَدْرًا ، وهم مُستَمْسِكونَ بما اختارُوا بهواهم مِنَ الدِّين في أَداءِ الفرائِضِ المشهورة ، واجتناب المحرَّماتِ المشهورة ، لكن يَضلُّونَ بِتركِ ما أُمِروا بهِ مِنَ الأَسبابِ التي هي عبادةٌ ، ظانينَ أنَّ العارِفَ إذا شَهِدَ القَدَرَ أَعْرَضَ عن ذلك ، مِثْلُ مَن يَجْعَلُ التوَكُّلَ منهم أو الدّعاءَ ونَحْوَ ذلك من مقاماتِ العامَّة دونَ الخاصَّةِ ؛ بِنَاءً على أَنَّ مَنْ شَهِدَ القَدَرَ علم أنَّ ما قُدّر سَيَكون ، فلا حاجَةَ إلى ذلك !

وهذا ضلالٌ مُبِينٌ وغَلَطٌ عَظيمٌ .

فإنَّ اللَّهَ قَدَّرَ الأشياءَ بأَسبَابِها ، كما قدَّر السّعادَةَ والشّقاوَةَ بأَسْبَابها ، كما قال النبيُّ ﷺ : « **إنَّ اللَّهَ خَلَقَ للجَنَّةِ أهْلًا ، خَلَقَها لهم وهم في أصلابِ آبائهم ، وبعملِ أهلِ الجَنَّةِ يعملون ، وخَلَقَ للنّارِ أهْلًا ، خَلَقَها لهم وهم في أَصْلابِ آبائِهم ، وبعمَلِ أهلِ النَّارِ يَعْمَلون** » [1] .

وكما قال النبيُّ ﷺ لما أَخبَرَهم بأَنَّ اللَّهَ كَتَبَ المقاديرَ ، فقالوا : يا رسولَ اللَّهِ ! أفلا نَدَعُ العَمَلَ ونَتَّكِلُ على الكتابِ ؟ فقال : « **لا** ،

(١) رواه مسلم (٢٦٦٢) وأبو داود (٤٧١٣) والنسائي (٤ / ٥٧) وابن ماجه (٨٢) وأحمد (٦ / ٤١ و ٢٠٨) والآجُرِّيّ في « الشريعة » (١٩٦) عن عائشة .

اعمَلُوا ، فكلٌّ مُيَسّرٌ لما خُلِقَ له ، أَمَّا مَن كان مِن أَهلِ السعادةِ ، فَسَيُيَسَّرُ لعَمَلِ أهلِ السَّعادةِ ، وأَمَّا مَن كانَ مِنْ أهلِ الشقاوةِ فَسَيُيَسَّرُ لعَمَلِ أهلِ الشَّقَاوةِ » [1] .

فكلُّ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ عبادَهُ مِنَ الأسبابِ فهو عبادةٌ [2] ، والتَوكُّلُ مقرونٌ بالعبادةِ ، كما في قوله تعالى : ﴿ **فاعبدهُ وتَوكَّلْ عليه** ﴾ [هود : ١٢٣] ، وفي قوله : ﴿ **قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكَّلتُ وإليه مَتاب** ﴾ [الرعد : ٣٠] ، وقولِ شعيبٍ عليه السّلامُ : ﴿ **عليه توَكَّلتُ وإليه أُنيب** ﴾ [هود : ٨٨] .

ومنهم طائفةٌ قد تَتْرُكُ المُستَحبّاتِ مِنَ الأعمالِ دونَ الواجباتِ ، فتَنْقُصُ بقَدْرِ ذلك .

ومنهم طائفةٌ يَغْتَرُّون بما يَحصلُ لهم مِنْ خَرْقِ عادةٍ [3] ، مثل مكاشَفَةٍ ، أو استجابةِ دَعْوَةٍ مخالفةٍ للعادةِ العامّة ، ونَحوِ ذلك ، فيشتغِلُ أحدُهم بهذه الأُمورِ عمّا أُمِرَ به مِنَ العبادةِ والشُّكرِ ونحوِ ذلك .

فهذه الأمورُ ونحوُها ، كثيرًا ما تعرِضُ لأهلِ السُّلوكِ والتوجُّه ، **وإنّما ينجو العبدُ منها بملازمَةِ أمرِ اللَّهِ الذي بَعَثَ به رَسُولَه في كلِّ وَقْتٍ .**

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٢) و (٤٩٤٥) و (٤٩٤٦) ومسلم (٢٦٤٧) وأبو داود (٤٦٩٤) والترمذي (٢١٣٦) و (٣٣٤٤) وأحمد (١ / ٨٢ و ١٢٩ و ١٣٢ و ١٤٠) وابن ماجه (٧٨) والنسائي في « الكبرى » كما في « تحفة الأشراف » (٧ / ٣٩٩) وعبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٠٧٤) وابن حبان (٣٤) و (٣٥) والآجرّي (١٧١ - ١٧٢) عن علي رضي اللَّه عنه .

(٢) قارن بما كتبتهُ في كتابي « الدعوة إلى اللَّه بين التجمّع الحزبي والتعاون الشرعي » (ص ٤١ - ٤٨) تحت عنوان : « العَمَل الإسلامي بين الوسائل والغايات » .

(٣) ككثيرٍ من مُدَّعي الكرامات ، وجلُّهم دجّالون مُخادِعون مُخاتِلون !

كما قال الزهريُّ : كان مَن مضى مِنْ سَلَفِنا يقولون : الاعتصامُ بالسنَّةِ نَجاةٌ .

وذلكَ أَنَّ السنَّة كما قال مالِكٌ رحمه اللَّهُ : مِثلُ سفينةِ نُوحٍ ؛ مَنْ رَكِبها نجا ، ومَن تخلَّفَ عنها غَرِقَ (١) .

والعبادَةُ والطّاعةُ والاستقامةُ ولزومُ الصراط المستقيمِ ونحوُ ذلك مِنَ الأسماءِ مقصودُها واحدٌ ، ولها أَصلان :

أحدهما : أَنْ لا يُعبدَ إلا اللَّهُ .

الثاني : أَنْ يُعْبَدَ بما أَمرَ وشَرعَ ، لا يعبُده بغيرِ ذلك مِنَ الأهواءِ والظّنون والبِدَعِ .

قال تعالى : ﴿ **فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَليعمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ولا يُشرِكْ بعِبادةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف : ١١٠] .

وقال تعالى : ﴿ **بَلَى مَن أَسلَمَ وَجْهَهُ للَّهِ وهُوَ مُحسِنٌ فَلَهُ أَجرُه عِندَ رَبِّه ولا خَوفٌ عليهم ولا هُم يحزَنُونَ** ﴾ [البقرة : ١١٢] .

وقال تعالى : ﴿ **ومَن أَحسنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للَّهِ وهُوَ مُحسِنٌ واتَّبَعَ ملَّةَ إبرَاهيمَ حنيفًا واتَّخذَ اللَّهُ إبرَاهيمَ خَلِيلًا** ﴾ [النساء : ١٢٥] .

فالعَمَلُ الصّالحُ : هو الإحسانُ ، وهو فِعلُ الحَسَناتِ .

والحَسَناتُ : هي ما أَحبَّهُ اللَّهُ ورسولُه ، وهو ما أَمَرَ به أَمْرَ إيجابٍ أَوِ استحبابٍ .

فما كان مِنَ البدَعِ في الدّينِ التي ليست في الكتابِ ، ولا في

(١) انظر « مفتاح الجنّة في الاحتجاج بالسنة » (ص ١٢٩) .

صحيحِ السنةِ ، فإنّها - **وإنْ قالَها مَن قالها ، وعَمِلَ بها مِنْ عَمِلَ** - ليست مَشْروعةً ؛ فإنَّ اللّهَ لا يُحبُّها ولا رسولُهُ ، فلا تكونُ مِنَ الحسناتِ ولا مِنَ العَمَلِ الصّالحِ .

كما أنَّ مَن يعملُ ما لا يجوزُ - كالفواحشِ والظّلمِ - ليس مِنَ الحسناتِ ولا مِنَ العملِ الصّالحِ .

وأما قولُه : ﴿ **ولا يُشرِكْ بِعبادةِ ربِّهِ أحَدًا** ﴾ [الكهف : ١١٠] ، وقولُه : ﴿ **أَسْلَمَ وَجْهَه للّهِ** ﴾ [البقرة : آية ١١٢] ؛ فهو إخلاصُ الدّينِ للّهِ وحدَهُ .

وكان عمر بن الخطابِ يقول : اللّهم ! اجعَلْ عَمَلي كلَّه صالحًا ، واجعَلهُ لوَجهِكَ خالِصًا ، ولا تجعَل لأحَدٍ فيه شيئًا .

وقال الفُضَيلُ بنُ عياضٍ [١] في قوله تعالى : ﴿ **ليَبلُوَكم أيّكم أَحْسَنُ عملًا** ﴾ [الملك : ٢] .

قال : **أَخلَصُه وأَصوَبُه** .

قالوا : يا أبا عليٍّ ! ما أخلَصُه وأصوَبُه ؟

قال : إنَّ العمَلَ إذا كانَ خالِصًا ولم يَكُنْ صَوابًا لم يُقْبَلْ ، وإذا كان صوابًا ولم يَكُنْ خالِصًا لم يُقْبَلْ ، حتى يكونَ خالِصًا صَوابًا ، والخالِصُ : أَنْ يكونَ للّهِ ، والصّوابُ : أَنْ يكونَ على السنّةِ [٢] .

فإن قيلَ : فإذا كانَ جميعُ ما يُحُبّه اللّهُ داخِلًا في اسمِ العبادةِ ؛ فلماذا عَطَفَ عليها غيْرَها ؛ كقولِه في فاتحةِ الكتاب : ﴿ **إياكَ نعبدُ**

---

(١) إمامٌ قُدوةٌ زاهدٌ ، توفي سنة (١٨٦ هـ) ترجمته في « سير أعلام النبلاء » (٨ / ٣٧٢) .

(٢) وفي كتابي « علم أُصول البدع » تقريرٌ متينٌ - إن شاء اللّه - لهذه القاعدة .

وإياكَ نستعينُ ﴾ ، وقولِه لنبيّه : ﴿ **فاعبدهُ وتوَكَّلْ عليه** ﴾[هود : ١٢٣] ، وقولِ نُوحٍ : ﴿ **اعبدُوا اللَّهَ واتَّقُوه وأطِيعون** ﴾ [نوح : ٣] ، وكذلك قولُ غيرِه مِنَ الرّسلِ ؟!

قيل : هذا له نظائرُ ، كما في قوله : ﴿ **إنَّ الصَّلاة تَنْهى عن الفَحشاءِ والمُنكر** ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ، والفحشاءُ مِنَ المنكرِ .

وكذلك قولُه : ﴿ **إنَّ اللَّهَ يأمُرُ بالعَدلِ والإحسَانِ وإيتَاءِ ذي القُرْبَى وينهى عَنِ الفحشاءِ والمُنكَرِ والبَغي** ﴾ [النحل : ٩٠] .

وإيتَاءُ ذي القُرْبَى هو مِنَ العدلِ والإحسانِ ، كما أَنَّ الفَحشاءَ والبَغي مِنَ المنكرِ .

وكذلك قولُه : ﴿ **والذين يُمسِّكونَ بالكتابِ وأقَامُوا الصَّلاة** ﴾ [الأعراف : ١٧٠] ، وإقامةُ الصَّلاةِ من أَعظَمِ التمَسُّكِ بالكتاب .

وكذلك قولُه عن أنبيائه : ﴿ **إنَّهُم كَانُوا يُسارِعونَ في الخَيراتِ ويَدعُونَنا رَغبًا وَرَهبًا** ﴾ [الأنبياء : ٩٠] ، ودعاؤهم رَغبًا ورَهبًا مَنَ الخيراتِ .

وأمثالُ ذلك في القرآنِ كثيرٌ .

وهذا الباب يكونُ تارةً مع كونِ أحدِهما بعضَ الآخرِ ، فيُعطَفُ عليه تخصيصًا له بالذّكرِ ؛ لكَونِهِ مطلوبًا بالمعنى العامّ والمعنى الخاصّ .

وتارةً دلالةُ الاسم تتنَوَّعُ بحالِ الانفراد والاقترانِ ، فإذا أُفْرِدَ عمَّ ، وإذا قُرِنَ بغيرِهِ خَصَّ ، كاسمِ : « الفقير » و « المسكينِ » ، لمّا أُفرِدَ أحدُهما في مثلِ قولِهِ : ﴿ **للفُقَراءِ الَّذينَ أُحصِرُوا في سَبيلِ اللَّهِ** ﴾

[البقرة : ٢٧٣] ، وقوله : ﴿ **إطعامُ عشرةِ مساكين** ﴾ [المائدة : ٨٩] ؛ دخل فيه الآخرُ .

ولما قُرِنَ بينهما في قوله : ﴿ **إنَّما الصدقاتُ للفُقراء والمساكينِ** ﴾ [التوبة : ٦٠] ؛ صارا نوعَيْنِ (١) .

وقد قيلَ : إنَّ الخاصَّ المعطوفَ على العامِّ لا يدخلُ في العامّ حالَ الاقترانِ ؛ بل يكونُ مِنْ هذا البابِ .

والتّحقيقُ أَنَّ هذا ليسَ لازِمًا .

قال تعالى : ﴿ **مَن كانَ عَدُوًّا للَّهِ وملائكتِه ورُسلِهِ وجبريلَ وميكالَ** ﴾ [البقرة : ٩٨] .

وقال تعالى : ﴿ **وإذ أَخذنا مِنَ النَّبيّينَ مِيثاقَهم وَمِنكَ ومِن نوحٍ وإبراهيمَ ومُوسى وعيسى ابنِ مريمَ** ﴾ [الأحزاب : ٧] .

وذِكرُ الخاصِّ مع العامِّ يكونُ لأسباب متنوّعَةٍ :

تارَةً لكونِهِ له خاصيَّةٌ ليست لسائر أفراد العامِّ ؛ كما في نوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى .

وتارةً لكَونِ العامِّ فيه إطلاقٌ قد لا يُفهَمُ منه العمومُ ، كما في قوله : ﴿ **هُدىً للمُتَّقينَ * الَّذين يُؤمِنونَ بالغَيبِ ويُقيمونَ الصَّلاة ومِمَّا رزقناهم يُنفِقُون * والذين يؤمنون بما أُنزلَ إليك وما أُنزلَ مِنْ قَبلِكَ** ﴾ [البقرة : ٢ - ٤] .

فقوله : ﴿ **يؤمنون بالغيبِ** ﴾ يتناولُ الغيبَ الذي يَجبُ الإيمانُ به ، لكِنْ فيه إجمال ، فليسَ فيه دلالةٌ على أَنَّ مِنَ الغيبِ ما أُنْزِلَ إليك

---

(١) انظر « الفروق اللُّغويَّة » (ص ١٤٥) لأبي هلال العسكريّ ، ففيه فائدةٌ - حول هذا - لطيفةٌ .

وما أُنزِلَ من قَبلِكَ .

وقد يكونُ المقصودُ أَنّهم يؤمنونَ بالمُخْبَرِ بهِ وهو الغَيْبُ ، وبالإِخبارِ بالغيبِ وهو ما أُنْزِلَ إِليكَ وما أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ .

ومِنْ هذا الباب قولُه تعالى : ﴿ **اتلُ ما أُوحيَ إليكَ مِنَ الكِتابِ وأَقِمِ الصَّلاةَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

وقولُه : ﴿ **والذين يُمَسِّكونَ بالكتابِ وأقامُوا الصَّلاةَ** ﴾ [الأعراف : ١٧٠] .

وتلاوةُ الكتابِ : هي اتّباعُه والعملُ به ، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ **الذين آتيناهُم الكتابَ يَتْلُونَه حَقَّ تلاوَتِهِ** ﴾ [البقرة : ١٢١] ؛ قال :

« يُحِلُّونَ حلالَه ، ويُحَرِّمونَ حرامَه ، ويُؤمِنُونَ بمتشابهِه ، ويعمَلُون بمُحكَمِهِ » (١) .

فاتباع الكتابِ : يتناوَلُ الصَّلاةَ وغَيْرَها ؛ لكِنْ خَصَّها بالذِّكر لمزِيَّتها .

وكذلك قولُه لموسى : ﴿ **إِنَّني أَنا اللَّه لا إِلهَ إِلا أنا فاعبُدني وأَقِمِ الصَّلاةَ لذِكري** ﴾ [طه : ١٤] ، وإقامةُ الصلاةِ لذِكرِه من أَجَلِّ عبادَته .

وكذلكَ قولُه تعالى : ﴿ **اتَّقوا اللّهَ وقولُوا قَولًا سَديدًا** ﴾ [الأحزاب : ٧٠] .

وقولُه : ﴿ **اتَّقُوا اللّه وابتَغُوا إليه الوَسيلةَ** ﴾ [المائدة : ٣٥] .

وقولُه : ﴿ **اتَّقُوا اللّهَ وكُونوا معَ الصادقِينَ** ﴾ [التوبة : ١١٩] .

---

(١) أخرجه ابنُ جرير في « جامع البيان » (٢ / ٥١٩) ، وعبد الرزّاق في « تفسيره » (١ / ٥٦) .

فإنَّ هذه الأمورَ هي أيضًا منْ تمامِ تَقْوَى اللَّه .

وكذلك قوله : ﴿ **فاعبُده وتَوَكَّل عليه** ﴾ [هود : ١٢٣] ؛ فإنَّ التّوكُّلَ والاستعانَةَ هي مِنْ عبادَة اللَّهِ ؛ لَكِن خُصَّتْ بالذّكْرِ ليقصِدَها المتعبِّدُ بخصوصها ؛ فإنّها هي العونُ على سائِرِ أنواعِ العبادةِ ، إذْ هو سبحانَه لا يُعبَدُ إلا بمعُونَتِهِ .

إذا تَبيَّنَ هذا فكمالُ المخلوقِ في تحقيقِ عُبوديَّتهِ للَّهِ ، وكُلَّما ازدادَ العَبْدُ تحقيقًا للعبوديةِ ازدادَ كمالُه وعَلَتْ دَرَجَتُهُ .

ومَن تَوَهَّمَ أنَّ المخلوقَ يخرجُ عَنَ العبودِيَّةِ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ ، أوْ أَنَّ الخروجَ عنها أكملُ ؛ فهو مِنْ أَجْهَلِ الخَلْقِ ، بل من أَضَلِّهِمْ .

قال تعالى : ﴿ **وقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحمَنُ وَلَدًا سُبحانَهُ بَل عِبادٌ مُكرَمُونَ * لا يَسْبقُونَه بالقَوْلِ وهُمْ بأَمرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ ما بيَنَ أيديهم ومَا خَلْفَهُم ولا يَشْفَعُونَ إلّا لمَن ارتضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشفِقُون** ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ **وقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جئتُم شَيئًا إدًّا * تَكَادُ السّماواتُ يتفطَّرنَ مِنهُ وتنشَقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجِبالُ هدًّا * أَنْ دَعوا للرّحمَن وَلَدًا * ومَا يَنبَغِي للرّحمَنِ أن يَتَّخِذَ وَلَدًا إنْ كلُّ مَنْ في السماواتِ والأرضِ إلّا آتي الرّحمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحصَاهُمْ وعَدَّهُم عدًّا * وكلُّهم آتيه يَومَ القِيامةِ فردًا** ﴾ [مريم : ٨٨ - ٩٥] .

وقال تعالى في المسيحِ : ﴿ **إنْ هو إلا عبدٌ أنعَمنا عَليهِ وَجَعَلناهُ مَثَلًا لبني إسرائيلَ** ﴾ [الزخرف : ٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ **ولَهُ مَن في السّماواتِ والأرضِ ومَن عِندَهُ لا**

يَستَكبِرونَ عَن عِبادَتِهِ ولا يَستَحسِرونَ * يُسَبِّحونَ اللَّيلَ والنَّهارَ لا يَفتُرُون ﴾ [الأنبياء : ١٩ - ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ لَن يَستَنكِفَ المسيحُ أَن يكونَ عَبدًا للَّهِ ولا الملائكةُ المُقرَّبُونَ ومَن يَستَنْكِفْ عن عبادَتِهِ ويستكبِرْ فَسَيَحشُرُهُم إليهِ جميعًا * فأمَّا الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ فَيُوَفِّيهم أُجورَهُم ويَزيدُهُم مِن فَضْلِهِ وأَمَّا الَّذينَ استَنكَفُوا واستَكبَرُوا فَيُعَذِّبُهُم عَذابًا أَليمًا ولا يَجِدونَ لهم من دونِ اللَّهِ وَلِيًّا ولا نصيرًا ﴾ [النساء : ١٧٢ - ١٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعُوني أَستَجِبْ لَكُم إنَّ الَّذينَ يَستَكبِرون عَن عِبادتي سَيَدخُلونَ جهنَّمَ دَاخِرينَ ﴾ [غافر : ٦٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَمِن آياتِه اللَّيلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقَمَرُ لا تَسجُدوا للشَّمسِ ولا للقَمَرِ واسجُدُوا للَّهِ الذي خَلَقَهُنَّ إنْ كُنتُم إيّاه تَعبُدونَ * فإنِ استَكبَروا فالّذينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحونَ لَهُ باللَّيلِ والنَّهارِ وَهُمْ لا يَسأَمُونَ ﴾ [فُصِّلَتْ : ٣٧ - ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ واذْكُرْ رَبَّكَ في نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وخِيفَةً ودُونَ الجَهرِ مِنَ القَوْلِ بالغُدُوِّ والآصالِ ولا تَكُنْ مِنَ الغافلينَ * إنَّ الذينَ عِندَ رَبِّكَ لا يستَكبِرونَ عن عبادَتِه ويُسَبِّحونَهُ وله يَسجُدونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥- ٢٠٦] .

وهذا ونحوُه - مِمّا فيه وَصفُ أكابِرِالخَلْقِ بالعبادَةِ ، وذَمُّ مَن خَرَجَ عن ذلك - مُتَعَدِّدٌ في القرآن ، وقد أخبرَ أنّه أرسلَ جميعَ الرّسلِ بذلك ؛ فقال تعالى : ﴿ ومَا أَرسلنا مِنْ قَبلِكَ مِنْ رسولٍ إلا نُوحي إليهِ أنّه لا إلَه إلا أنا فاعبدون ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وقال : ﴿ ولقد بَعَثْنا في كلِّ أمَّةٍ رَسولًا أَنِ اعبُدوا اللّهَ واجتَنِبوا الطّاغوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] .

وقال تعالى لبني إسرائيلَ : ﴿ يا عباديَ الّذينَ آمَنُوا إنَّ أَرضِي واسعةٌ فإيّايَ فاعبُدون ﴾ [العنكبوت : ٥٦] ، ﴿ وإيّايَ فاتّقون ﴾ [البقرة : ٤١] .

وقال : ﴿ يا أيّها النّاسُ اعبُدوا رَبَّكم الذي خَلَقَكُمْ والَّذينَ مِنْ قبلِكُم لعَلَّكُم تَتَّقُون ﴾ [البقرة : ٢١] .

وقال : ﴿ وَما خلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلا ليعْبُدونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ قُل إني أُمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخلِصًا له الدّينَ * وأُمِرتُ لأن أكونَ أوّلَ المُسلمينَ * قُلْ إنّي أخافُ إن عَصَيْتُ رَبّي عَذاب يَومٍ عَظِيمٍ * قُل اللَّهَ أَعبُدُ مُخْلصًا له دِيني * فاعبُدوا ما شِئتُم مِنْ دونِهِ ﴾ [الزمر : ١١ - ١٥] .

وكُلُّ رَسولٍ مِنَ الرسلِ افتتحَ دَعْوَتَهُ بالدُّعاءِ إلى عبادةِ اللَّهِ[١] ؛ كقول نوحٍ ومَن بَعدَهُ عليهم السّلامُ في : ﴿ اعبدُوا اللَّهَ ما لكم مِنْ إلَهٍ غَيْرُه ﴾ [المؤمنون : ٢٣] .

وفي « المسند » [٢] عن ابن عُمَرَ عن النبي ﷺ أنّه قال : « **بُعِثتُ بالسَّيف بينَ يَدَي السّاعةِ حتى يُعبَدَ اللَّهُ وَحدَهُ لا شريكَ له ، وجُعِلَ رِزقي تحتَ ظلِّ رُمحي ، وجُعِلَ الذِّلةُ والصَّغارُ على مَنْ خالفَ أَمْري** » .

وقد بَيَّنَ أنَّ عبادَه هم الذين يَنجُونَ مِنَ السَّيئاتِ ، قال

(١) وهذا هو النهجُ الصحيحُ في الدعوة إلى اللهِ .

(٢) (٢ / ٥٠ و ٩٢) بسند حَسنٍ وقد خرّجتُه مطولًا في أوائل رسالة الحافظ ابن رَجَب الحنبلي في شرحه « الحِكَم الجديرة بالإذاعة » ، يسّر اللَّهُ نَشْرَها .

الشّيطانُ [1] : (رَبِّ بما أَغوَيتَني لأَزيِّنَنَّ لَهُم في الأَرضِ ولأُغوِينَّهُم أَجمَعين * إلّا عِبادَكَ مِنهُمُ المُخلَصِين) .

قال تعالى : ﴿ إنَّ عبادي لَيسَ لكَ عليهم سُلطانٌ إلّا مَن اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوينَ ﴾ [الحِجر : ٤٢] .

وقال : ﴿ فبعزَّتِكَ لأُغوينَّم أجمَعِينَ * إلا عبادَكَ منهم المخلَصين ﴾ [ص : ٨٢ - ٨٣] .

وقال في حقِّ يوسفَ : ﴿ كذلك لنَصْرِفَ عنه السّوءَ والفَحْشَاءَ إنّه مِنْ عبادنَا المُخْلَصين ﴾ [يوسف : ٢٤] .

وقال : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عمّا يَصِفُونَ * إلا عِبَادَ اللَّهِ المُخْلَصين ﴾ [الصّافات : ١٥٩ - ١٦٠] .

وقال : ﴿ إنّه لَيسَ لَهُ سُلْطَانٌ على الّذين آمنُوا وَعَلَى رَبّهم يتوَكَّلُونَ * إنّما سُلْطَانُه عَلَى الّذينَ يَتَوَلَّوْنَه وَالّذينَ هُمْ به مُشرِكُونَ ﴾ [النحل : ٩٩ - ١٠٠] .

وبالعبودّيةِ نَعَتَ كُلَّ مَنِ اصْطَفَى مِنْ خَلْقِهِ في قولِه : ﴿ واذْكُرْ عِبَادنَا إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعْقُوبَ أُولي الأَيْدي والأبصار * إنّا أَخْلَصناهُمْ بِخَالِصةٍ ذِكرَى الدّارِ * وإنّهُم عِندَنَا لَمِنَ المصطَفَيْنَ الأخيارِ ﴾ [ص : ٤٥ - ٤٧] .

وقولِه : ﴿ واذكُرْ عَبْدَنا دَاوُدَ ذا الأَيدِ إنّه أَوّاب ﴾ [ص : ١٧] .

وقال عن سُليمانَ : ﴿ نِعْمَ العَبْدُ إنّه أَوّاب ﴾ [ص : ٣٠] .

وعن أَيُّوبَ : ﴿ نِعْمَ العَبْدُ ﴾ [ص : ٤٤] .

(١) كما في سورة الحِجْر : آية ٣٩ - ٤٠ حكايةً عنه .

وقال : ﴿ واذكُرْ عَبدَنا أيّوبَ إذ نادى رَبَّه ﴾ [ص : ٤١] .

وقال عن نُوحٍ عليه السّلام : ﴿ ذُرّيةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إنَّه كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء : ٣] .

وقال عن خاتَمِ رُسُلِه : ﴿ سُبْحانَ الَّذي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إلى المَسْجِدِ الأَقْصى ﴾ [الإسراء : ١] .

[وهو أُولى القِبْلَتَين (١) ، وقد خَصَّه اللَّهُ بأَنْ جَعَلَ العبادةَ فيه بخمس مِائَةِ ضِعْفٍ (٢) .

والمقصودُ بمضاعفةِ الحسناتِ هو المسجِدُ الذي حَرَقَهُ اليهودُ (١) ، عليهم لَعْنَةُ اللَّهِ .

---

(١) ومَن يقولُ متمِّمًا : « وثالث الحرمين الشريفين » ! فقد جانَبَ الصوابَ إذْ لم يَرِدْ في السنَّة أنّه (حَرَم) ، ومُضَاعَفَةُ الصلاةِ شأْنٌ آخرُ كما لا يخفى على الفَطِنِ .

(٢) كما رواه البزّار في « مسنده » (٤٢٢) مِن طريق سعيد بن سلم القَدّاح ، عن سعيد بن بشير ، عن إسماعيل بن عُبيدَ اللَّه ، عن أم الدرداء ، عن أبي الدرداء .

ورواه ابن عبد البرّ في « التمهيد » (٦ / ٣٠) والطحاوي في « مشكل الآثار » (١ / ٢٤٨) وابن عدي في « الكامل » (٣ / ١٢٣٤) من طريق سعيد القداح به .

وأورده السيوطي في « الدر المنثور » (٢ / ٥٣) وزاد نسبتَه لابن خُزيمة ، والطَّبراني ، والبيهقي في « الشُّعَب » .

والقدّاح وكذا سعيد بن بَشير ضعيفان !

والصوابُ في هذا ما رواه الحاكم (٤ / ٥٠٩) والضِّياء المقدسي في « فضائل بيت المقدس » (ص ٥١) : عن أبي ذَرّ أن النبيَّ ﷺ سُئِل عن الصلاة في بيت المقدس أفضل أو مسجده ؟ فقال : « **صلاة في مسجدي هذا أفضل من أربع صلواتٍ منه ، ولنعم المصلّى** ... » ؛ أي : مائتان وخمسون صلاة ، وسنده جيّدٌ .

وأورده الهيثمي في « المجمع » (٤ / ٧) ، وزاد نسبته للطبراني « الأوسط » ثم قال : « ورجالُه رجالُ الصحيح » .

ويظنُّ البعضُ أنَّ المسجدَ الأقصى هو الصخرةُ والقُبَّةُ المحيطةُ بها ، وليس كذلك [٢]] .

وقال : ﴿ وأنَّه لمَّا قامَ عبدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجنّ : ١٩] .

وقال : ﴿ وَإِنْ كُنْتُم في رَيْبٍ مِمَّا نزَّلنا عَلَى عَبْدِنا ﴾ [البقرة : ٢٣] .

وقال : ﴿ فأَوْحَى إلى عَبْدِهِ ما أَوْحى ﴾ [النجم : ١٠] .

وقال : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بها عِبَادُ اللَّه ﴾ [الإنسان : ٦] .

وقال : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحمَنِ الَّذينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

ومِثْلُ هذا كثيرٌ مُتَعَدِّدٌ في القُرآنِ .

* * *

---

(١) ولا زالوا يفعلون ! قاتَلَهم اللَّهُ أنّى يُؤْفَكونَ !! .

(٢) زيادة مِن بعض النسخ .

٢ - فصل

[في التَّفَاضُلِ بالإيمانِ]

إذا تَبَيَّنَ ذلك ؛ فمعلومٌ أَنَّ النَّاسَ يتفاضَلُون في هذا البابِ تفاضُلًا عظيمًا ، وهو تفاضُلُهم في حقيقةِ الإيمانِ .

وهُم يَنْقَسِمون فيه إلى عامٍّ وخاصٍّ ، ولهذا كانت ربوبيةُ الربِّ لهم فيها عمومٌ وخصوصٌ .

ولهذا كان الشِّركُ في هذه الأُمَّةِ أخفَى مِنْ دبيبِ النَّمْلِ [١] .

وفي « الصحيح » [٢] عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « **تَعس عبدُ**

---

(١) كما صحّ عن النبيِّ ﷺ فيما رواه أبو يعلى (٥٨) وابن السُّنِّي (رقم : ٢٨١) والمروزي في « مسند أبي بكر » (١٧) من طريق ابن جُريج :
أخبرني لَيْث بن أبي سُليم ، عن أبي محمد ، عن حذيفة ، عن أبي بكر الصدّيق .
وسنده ضعيفٌ ، لضعفِ لَيْث ، وجهالة أبي محمد .
وفي الباب عن عدّة من الصحابة بأسانيد ضعيفة يُقَوّى بعضها بعضًا :
في « المسند » (٤ / ٤٠٣) عن أبي موسى .
وفي « الحلية » (٧ / ١١٢) من طريق آخر عن أبي بكر .
ورواه ابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١٣٧٨) والحاكم (٢ / ٢٩١) وأبو نُعيم (٨/ ٣٦٨) عن عائشة .
وفي « الحلية » (٣ / ٣٦) - كذلك - عن ابن عباس .
وانظر « مجمع الزوائد » (١٠ / ٢٢٣) و « إتحاف السادة المتقين » (٢ / ٤٧٠) و (٧/ ٣٠٤) و (٨ / ٣١) و « المطالب العالية » (٣١٩٩) و « الدر المنثور » (٢ / ١٧) .

(٢) « صحيح البخاري » (رقم : ٦٤٣٥) عن أبي هُريرة .
ورواه ابن ماجه (٤١٣٦) والبيهقي (٩ / ١٥٩) وغيرهم .

الدِّرهم ، تَعسَ عبد الدينار ، تعسَ عبدُ القطيفةِ ، تَعسَ عبدُ الخميصةَ ، تَعسَ وانتكَسَ ، وإذا شِيكَ فلا انْتَقَشَ ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وإِنْ مُنِعَ سَخِطَ » .

فسمّاه النبيُّ ﷺ عبدَ الدِّرْهم ، وعبدَ الدينار ، وعبدَ القَطيفةِ ، وعبدَ الخَميصةِ ، وذَكَرَ ما فيه ، دعاءً وخبرًا ، وهو قولُهُ : « **تَعِسَ وانتكَسَ ، وإذا شِيكَ فلا انتقشَ** » .

والنقشُ : إخراج الشّوكةِ من الرجل ، والمِنقاشُ : ما يُخْرَجُ به الشّوكَةُ .

وهذه حالُ مَنْ إذا أصابه شَرٌّ لم يخرُج منه ، ولم يُفْلِحْ لكَوْنِهِ تعسَ وانتكسَ ، فلا نالَ المطلوبَ ، ولا خَلَصَ مِنَ المكروهِ ، وهذه حالُ مَنْ عَبَدَ المالَ .

وقد وُصِفَ ذلك بأنّه إذا أُعْطِيَ رَضِيَ ، وإذا مُنِعَ سَخِطَ ، كما قال تعالى : ﴿ **ومِنْهم مَنْ يَلْمِزُكَ في الصّدقاتِ فإن أُعطوا منها رَضُوا وإِنْ لم يُعْطَوا منها إذا هم يَسْخَطون** ﴾ [التوبة : ٥٨] .

فرِضاهم لغيرِ اللّهِ ، وسَخَطُهم لغيرِ اللّهِ .

وهكذا حالُ مَن كان مُتَعَلِّقًا برئاسةً أو بصورةٍ ، ونحو ذلك مِن أَهْواءِ نَفْسِهِ ؛ إنْ حَصَلَ لَهُ رَضِيَ ، وإنْ لم يَحْصُلْ له سخِطَ [1] ، فهذا عَبْدُ ما يهواه مِن ذلك ، وهو رقيقٌ له ، إذ الرِّقُّ والعبوديّةُ - في الحقيقةِ - هو رِقُّ القَلْبِ وعبودِيّتُهُ ، فما استَرَقَّ القلبَ واستعبَدَه ، فهو عَبْدُهُ .

---

(١) وهؤلاء كثيرٌ في كُلِّ عَصْر ومِصْر ، ولكنّ خَطَرهم يزولُ ، وانحرافَهم يَمَّحي لمّا تذهبُ مصالحهُم ، وتروحُ رئاستُهم وأهواؤهم ، وحالُهم كَمِثْل ما قيل قديمًا (!) :

صلّى وصام لأمرٍ كان يطلُبُه فَلَمَّا انقضى الأمرُ لا صام ولا صلّى !

ولهذا يُقالُ :

العبدُ حُرٌّ ما قَنِعْ والحرُّ عَبْدٌ ما طَمِعْ

وقال القائلُ :

أطعْتُ مَطامِعِي فاستَعْبَدَتْني ولو أنّي قَنِعتُ لكُنْتُ حُرًّا

ويُقالُ : الطَّمَعُ غُلٌّ في العُنُقِ قَيْدٌ في الرِّجْلِ ، فإذا زالَ الغُلُّ من العُنُقِ زالَ القَيْدُ مِنَ الرِّجْلِ .

ويُروى عن عُمرَ بن الخطّابِ رضي اللّه عنه أنّه قال :

الطَمعُ فَقْرٌ ، واليأسُ غِنًى ، وإنَّ أحدكم إذا يئسَ من شيءٍ ، استَغْنَى عنه .

وهذا أمرٌ يَجِدُهُ الإنسانُ مِنْ نَفْسِهِ ، فإنَّ الأَمْرَ الذي يَيْأَسُ منَ لا يطلُبه ، ولايَبْقى قلبُهُ فقيرًا إليه ، ولا إلى مَنْ يَفْعَلُهُ .

وأمّا إذا طَمِعَ في أَمْرٍ مِنَ الأُمورِ ورَجاه ، فإنَّ قَلْبَه يتعَلَّقُ به ، فيصيرُ فقيرًا إلى حُصولِهِ ، وإلى مَنْ يَظُنُّ أنّهُ سببٌ في حُصولِهِ وهذا في المال والجاهِ والصّورِ وغيرِ ذلك .

قال الخليلُ ﷺ (١) : ﴿ **فابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرِّزْقَ وَاعْبدُوهُ وَاشْكُرُوا له إلَيْهِ تُرْجَعون** ﴾ .

فالعَبْدُ لا بُدَّ له مِنْ رِزْقٍ ، وهو مُحتاجٌ إلى ذلك :

فإذا طلبَ رِزْقه مِنَ اللّهِ صارَ عَبْدًا لِلّهِ ، فقيرًا إليه .

---

(١) كما في سورة العنكبوت : آية ١٧ ، حكايةً عنه .

وإذا طَلَبَه مِنْ مخلوقٍ صَارَ عَبْدًا لذلك المخلوقِ فقيرًا إليه .

ولهذا كانَتْ مسألةُ (١) المخلوقِ مُحَرَّمةً في الأَصْلِ ، وإنما أُبيحَتْ للضَّرورةِ (٢) .

وفي النَّهي عنها أحاديثُ كثيرةٌ في « الصّحاح » و « السُّننِ » و « المسانيدِ » :

كقولِهِ ﷺ : « **لا تزالُ المسأَلَةُ بأَحَدِكم حتى يأتي يومَ القيامةِ وليس في وَجْهِهِ مُزْعةُ لحم** » (٣) .

وقولِهِ : « **مَنْ سألَ النَّاسَ وله ما يُغْنيهِ ؛ جاءَتْ مسأَلَتُهُ يومَ القيامةِ خُدوشًا - أو خُموشًا ، أو كُدوشًا - في وَجْهِهِ** » (٤) .

وقوله : « **لا تَحِلُّ المسألةُ إلا لذي غُرْمٍ مُفظعٍ ، أو دَمٍ مُوجعٍ ، أو فقرٍ مُدْقعٍ** » (٥) .

---

(١) أي : سؤالُه والطَّلبُ منه .

(٢) انظر تحريرَ المصنِّف لهذه المسألة في « مجموع الفتاوي » (١ / ١٨٥ - ١٨٧) .

(٣) أخرجه البخاري (١٤٧٤) ومسلم (١٠٤٠) والنسائي (٥ / ٩٤) وأحمد (٢ / ١٥ و ٨٨) عن ابن عُمر .

(٤) أخرجه أبو داود (١٦٢٦) والنسائي (٥ / ٩٧) والترمذي (٦٥٠) والدارمي (١ / ٣٨٦) وابن ماجه (١٨٤٠) وأحمد (١ / ٣٨٨ و ٤٤١) والحاكم (١ / ٤٠٧) عن ابن مسعود .
وسندُه صحيحٌ .

(٥) رواه أحمد (٣ / ١٠٠ و ١١٤ و ١٢٦) وأبو داود (٦٤١) والنسائي (٧ / ٢٥٩) وابن ماجه (٢١٨٩) والطيالسي (٢٨٥) وأبو نُعيم (٣ / ١٣٢) من طُرق عن أبي بكر الحَنَفي عن أَنَس ...
مطوّلًا ومختصرًا .
وسنده ضعيف لجهالة أبي بكر الحَنَفي ، ويشهدُ له ما بعده كما قال المصنِّفُ .

وهذا المعنى في « الصَّحيحِ »[١] .

وفيه أيضًا : « **لأَنْ يأخُذَ أحدُكم حبلَه فيَذْهَبَ فيحتَطِبَ خيرٌ له مِنْ أَنْ يسألَ النَّاسَ ، أعطَوْهُ أو مَنَعُوه** »[٢] .

وقال : « **ما أتاكَ مِنْ هذا المالِ وأَنْتَ غيرُ سائلٍ ولا مُشرفٍ فَخُذْهُ ، وما لا فلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ** »[٣] .

فكَرِهَ أَخْذَهُ مع سؤالِ اللسانِ ، واستشرافِ القَلْبِ .

وقال في الحديثِ الصَّحيحِ[٤] : « **مَنْ يَستَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ ، ومَنْ يَسْتَعفِف يُعِفَّه اللَّهُ ، ومَنْ يَتَصَبَّرْ يُصبِّره اللَّهُ ، وما أُعطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ** » .

---

(١) لعلّه يشير إلى ما رواه مسلم (١٠٤٤) وأبو داود (١٦٤٠) والنَّسائي (٥ / ٨٩ و ٩٦ - ٩٧) والدارمي (١ / ٣٣٣) والبيهقي (٥ / ٢١ و ٢٣) عن قَبِيصَةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « ... **إن المسألة حُرِّمت ، إلا في إحدى ثلاث : رجلٌ تحمّل بحَمالةٍ فحلَّت له المسألةُ حتى يُؤدِّيَها ثم يُمسِك ، ورجلٌ أصابته جائحةٌ اجتاحت ماله فحلّت له المسألة ، فهو يسأل حتى يُصيبَ سدادًا من عيش - أو قِوامًا من عيش - ثم يُمسك ، ورجلٌ أصابته حاجةٌ وفاقةٌ حتى يشهدَ ثلاثةٌ من ذوي الحِجى مِن قومِه فحلّت له المسألةُ** ... » .

(٢) رواه البخاري (١٤٧١) و (٢٣٧٣) وأحمد (١ / ١٦٤ و ١٦٧) والبيهقي (٤ / ١٩٥) وابن ماجه (١٨٣٦) ووكيع في « الزهد » (١٤١) عن الزُّبير بن العوّام .

(٣) حديثٌ صحيحٌ ، انظر تخريجه في تعليقي على « الرباعي في الحديث » (ص ١٧ -١٨) للحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي .
وانظر أيضًا « النكت الظِّراف » (٨ / ٣٩) و « فتح الباري » (١٣ / ١٥٣) كلاهما للحافظ ابن حَجَر .

(٤) أخرجه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣) ومالك في « الموطأ » (٢ / ٩٩٧) وأبو داود (١٦٤٤) والترمذي (٢٠٢٥) والنَّسائي (٥ / ٩٥) والبيهقي (٤ / ١٩٥) والبَغَوي (٦ / ١١٠) عن أبي سعيد الخُدْريِّ .

وأَوصى خواصَّ أصحابِهِ أَنْ لا يسألوا النّاسَ شيئًا :

وفي « المسند » (١) : « **أنّ أَبا بكرٍ كان يَسقطُ السّوطُ مِنَ يدهِ فلا يقولُ : لأَحَدٍ ناوِلْني إيّاهُ ، ويقولُ : إنَّ خليلي أَمرَني أَنْ لا أسأَلَ النّاسَ شيئًا** » .

وفي « صحيح مسلم » (٢) وغيرهِ ، عن عوفِ بنِ مالكٍ أَنَّ النبيَّ ﷺ بايَعَه في طائفةٍ ، وأَسَرَّ إليهم كلمةً خَفِيّةً ، « **أن لا تسألوا النّاسَ شيئًا** » .

فكان بعض أولئك النّفر يسقطُ السّوْطُ مِنْ أَحَدِهِمْ ولا يقولُ لأَحَدٍ : ناوِلْني إيّاه .

وقد دَلَّتِ النُّصوصُ على الأَمْرِ بمسأَلَةِ الخالقِ ، والنَّهْيِ عن مسأَلَةِ المخلوقِ في غيرِ مَوْضِع :

كقوله تعالى : ﴿ **فإذَا فَرَغْتَ فانْصَبْ * وإلى رَبِّكَ فارْغَبْ** ﴾ [الانشراح : ٧ - ٨] .

---

(١) (برقم : ٦٥) من طريق ابن أبي مُلَيكة عنه .

وقال العلامة أحمد شاكر : « إسنادُه ضعيفٌ لانقطاعه ، فإنّ ابنَ أبي مُلَيْكَةَ - واسْمُه عبد اللّه بن عبيد اللّه - تابعيٌ ثقةٌ ، ولكنّه لم يُدرك أبا بكرٍ » .

وَنَقَلَ السُّيوطي في « جمع الجوامع » (١٧١١٣ - ترتيبه) عن الحافظ ابن حَجَر في « الأطراف » قولَه : « هذا منقطعٌ » .

ويشهدُ للمرفوع منه ما بعده .

(٢) (برقم : ١٠٤٣) .

ورواه أبو داود (١٦٢٦) والنَّسائي (١ / ٢٢٩) وابن ماجه (٢٨٦٧) والطبراني في « الكبير » (١٨ / ٣٣ و ٦٧ و ١٣٠) وفي « مسند الشاميِّين » (٣٣٥) وأحمد (٦ / ٣٧) من طريقين عن عَوْف .

وقولِ النبيِّ ﷺ لابنِ عبّاسٍ ﷺ : « **إذا سَألْتَ فاسأَلِ اللَّهَ ، وإذا استَعَنْتَ فاستَعِنْ باللَّهِ** » [١] .

ومنه قولُ الخليلِ : ﴿ **فابتَغُوا عندَ اللَّهِ الرِّزق** ﴾ [العنكبوت : ١٧] ، ولَمْ يَقُلْ : فابتَغُوا الرِّزْقَ عندَ اللَّهِ ، لأَنَّ تقديمَ الظَّرفِ يُشْعِرُ بالاختصاصِ والحَصْرِ ، كأَنَّهُ قال : لا تَبْتَغُوا الرِّزْقَ إلا عندَ اللَّهِ ، وقد قال تعالى : ﴿ **واسألوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ** ﴾ [النساء : ٣٢] .

والإنسانُ لا بُدَّ له مِنْ حُصولِ ما يحتاجُ إليه مِنَ الرِّزْقِ ونَحْوِهِ ، ودَفْعِ ما يَضُرُّهُ .

وكِلا الأمْرَيْنِ شُرِعَ له أَنْ يكونَ دعاؤهُ لِلَّهِ ، فلا يَسْأَلِ رِزْقَه إلا مِنَ اللَّهِ ، ولا يَشْتَكِي إلا إليه ، كما قال يعقوبُ عليه السّلامُ [٢] : ﴿ **إنّما أَشكو بَثِّي وحُزْني إلى اللَّهِ** ﴾ .

واللَّهُ تَعالى ذَكَرَ في القرآنِ : الهَجْرَ الجميلَ ، والصَّفْحَ الجميلَ ، والصَّبْرَ الجميلَ .

وقد قيل : إنَّ الهَجْرَ الجميلَ : هو هَجْرٌ بلا أَذىً .

والصَّفْحَ الجميلَ : صَفْحٌ بلا معاتَبَةٍ .

والصَّبْرَ الجميلَ : صَبْرٌ بغير شكوى إلى المخلوقِ .

---

(١) رواه أحمد (١ / ٢٩٣ و ٣٠٧) والترمذي (٢٥١٦) وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٤٢٥) وأبو يعلى (٢٥٥٦) والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٧٥) عن ابن عباس بسند حَسَن .

وللحديث طرق أخرى وشواهد لا مَجَال لِسَرْدِها .

(٢) كما في سورة يوسف : آية ٨٦ ، حكايةً عنه .

ولهذا قُرِئَ على أحمدَ بنِ حَنبلٍ في مَرَضِهِ : إنَّ طاوسًا كان يَكْرَهُ أنينَ المريضِ ويقولُ : إنّه شَكْوى ، فما أَنَّ أحمدُ حتى مات [١] .

وأَمّا الشَّكْوى إلى الخالِقِ فلا تُنافِي الصَّبْرَ الجميلَ ، فإنَّ يعقوبَ [٢] قال : ﴿ فصبرٌ جميلٌ ﴾ وقال : ﴿ إنّما أَشْكُو بَثّي وحُزْنِي إلى اللّهِ ﴾ .

وكان عمرُ بن الخطابِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ يقرأُ في الفَجْرِ بسورةِ يونُسَ ، ويوسفَ ، والنَّحْلِ ؛ فمرَّ بهذه الآيةِ في قراءتِهِ فَبَكى حتى سُمِعَ نشيجُهُ مِنْ آخرِ الصّفوفِ .

ومِنْ دُعاءِ مُوسى [٣] : « اللهمَّ لك الحمدُ وإليكَ المُشْتكى ، وأنْتَ المُسْتَعَانُ ، وَبِكَ المُسْتَغَاثُ ، وعَلَيْكَ التُّكلانُ ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلا بكَ » .

وفي الدّعاءِ الذي دعا به النبيُّ ﷺ لما فَعَلَ به أَهْلُ الطّائفِ ما فعلوا : « **اللهمَّ إليكَ أَشكو ضَعفَ قُوّتي ، وقِلَّةَ حِيلتي ، وهَوانِي على النّاسِ ، يا أَرْحَمَ الرّاحِمين ، أَنْتَ رَبُّ المُستَضْعَفِين وأَنْتَ رَبّي ، اللَّهمَّ ! إلى مَنْ تَكِلُني ؟ إلى بعيدٍ يَتَجَهَّمُني ؛ أَمْ إلى عَدُوٍّ ملَّكْتَهُ أَمْري ؟ إنْ لم يكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فلا أُبالي ؛ غير أَنَّ عافِيَتَك أَوْسعُ لي ، أعوذُ بنورِ وَجْهِكَ الذي أشرقتْ به الظلمات ، وصلح عليه أَمر الدنيا والآخرة ؛ أن ينزل بي سخطُك ، أو يحل عليَّ غضبُك ، لك العُتْبى حتَّى ترضى ، فلا حول ولا**

---

(١) « سير أَعلام النبلاءِ » (١١ / ٢١٥) .

(٢) كما في سورة يوسف : آية ٨٣ ، حكاية عنه .

(٣) لعله من الروايات الإسرائيلية ، وضابطُها أنّه ليس في ذكرها غَضاضةٌ بشرطِ عَدَم المخالَفة .
وبيانُ ذلك في رسالتي « التحذيرات مِن الفتن العاصفات » (١٨ - ٢٠) .

قوة إلا باللَّه » .

وفي بعضِ الرِّوايات : « **ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بك** » [(١)] .

وكُلَّما قَوِيَ طَمَعُ العَبْدِ في فَضْلِ اللَّهِ ورَحْمتِهِ ورجائِهِ لقضاءِ حاجَتِهِ ودَفْعِ ضَرورَتِهِ ؛ قَوِيَتْ عبودِيَّتُهُ له ، وحُرِّيتُهُ مِمّا سواه ، فكما أَنَّ طمَعَهُ في المخلوقِ يوجِبُ عبودِيَّتَه له ؛ فيَأسُه منه يوجِبُ غِنى قَلْبِهِ عنه ، كما قيل : استَغْنِ عَمَّنْ شِئْتَ تَكُنْ نظيرَه ، وأَفْضِلْ على مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَميرَهُ [(٢)] ، واحتَجْ إلى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أسيرَه .

فكذلك طَمَعُ العَبْدِ في رَبِّهِ ورجاؤه له يُوْجِبُ عبودِيَّتَه له .

وإعراضُ قَلْبِهِ عنِ الطَّلَبِ مِنَ اللَّهِ والرّجاءِ له يُوجِبُ انصِرافَ قَلْبِهِ عَنِ العبودِيَّةِ للَّهِ ، لا سيّما مَنْ كان يرجو المخلوقَ ولا يرجو الخالِقَ ؛ بحيثُ يكونُ قلبُهُ مُعْتَمِدًا إِمَّا على رئاسَتِهِ وجنودِهِ وأَتْباعِهِ ومماليكِهِ ، وإِمّا على أَهْلِهِ وأَصْدقائِهِ ، وإِمّا على أَمْوالِهِ وذخائِرِهِ ، وإِمّا على ساداتِهِ وكُبَرائِهِ ؛ كمالِكِهِ ، ومَلِكه ، وشَيْخِهِ ، ومَخْدومِهِ ، وغَيْرِهم مِمَّنْ هو قد ماتَ أو يموتُ ، قال تعالى : ﴿ **وتوكَّلْ على الحيِّ الذي لا يموتُ وَسَبِّحْ بحَمدِهِ وكفى به بذنوب عبادِهِ خبيرًا** ﴾ [الفرقان : ٥٨] .

---

(١) رواه ابنُ إسحاق في « السيرة » (٢ / ٧٠ - تهذيبها) مرسلًا ، ومِن طريقِهِ الطبري في « تاريخه » (٢ / ٣٤٤) .

ووَصَله الطبراني في « المعجم الكبير » - وترى إسنادَه في « تاريخ قزوين » (٢ / ٨٢) - كما قال الهيثمي في « المجمع » (٦ / ٣٥) عن عبد اللَّه بن جعفر ، ثم قال :

« وفيه ابنُ إسحاق ، وهو مدلِّسٌ ثقةٌ ، وبقيّة رجالِه ثقات » .

قلتُ : وقد عَنْعَنَه !

(٢) بمعنى المُتَفَضَّل عليه ، الآمِر له ، ولا يُريد بها المعنى الشرعي للإمارة !

وكلُّ مَنْ عَلّقَ قَلْبَه بالمخلوقين أَنْ يَنْصُروه أو يَرْزُقوه أو أَنْ يَهْدُوه ؛ خَضَعَ قلبُهُ لهم ، وصار فيه مِنَ العبودِيَّةِ لهم بِقَدْرِ ذلك ، وإنْ كان في الظّاهر أميرًا لهم ، مُدَبِّرًا لهم ، مُتَصرِّفًا بهم .

فالعاقِلُ ينظُرُ إلى الحقائقِ لا إلى الظّواهرِ .

فالرَّجلُ إذا تَعَلَّقَ قلبُهُ بامرأة - ولو كانت مُباحةً له - يَبْقى قلبُهُ أَسيرًا لها تَحكُمُ فيه وتَتَصَرَّفُ بما تريدُ ، وهو في الظّاهرِ سَيِّدُها لأَنّه زَوْجُها أو مالِكُها ، ولكنَّه في الحقيقةِ هو أسيرُها ومملوكُها ، ولا سيّما إذا دَرَتْ بفَقرِهِ إليها وعِشْقِهِ لها ، وأنّه لا يعتاضُ عنها بغَيْرِها ، فإنّها حينئذٍ تَتَحَكَّمُ فيه تَحَكُّمَ السيّد القاهرِ الظّالم في عَبْدِهِ المقهور ؛ الذي لا يستطيعُ الخلاصَ منه ، بل أعظمُ ، فإنَّ أَسْرَ القَلْبِ أَعْظمُ مِنْ أَسْر البَدَنِ ، واستعبادَ القَلْبِ أعظمُ مِن استعبادِ البَدنِ .

فإن مَن استُعْبِدَ بدنُهُ واستُرِقّ وأُسِرَ ؛ لا يُبالي إذا كان قلبُهُ مستريحًا مِنْ ذلك مُطْمَئِنًّا ، بل يُمْكِنُهُ الاحتيالُ في الخلاصِ .

وأَمّا إذا كانَ القلبُ - الذي هو مَلِكُ الجسْمِ - رقيقًا مُسْتَعْبَدًا ، مُتَيَّمًا لغيرِ اللَّهِ ؛ فهذا هو الذلُّ والأَسْرُ المحضُ والعبودِيَّةُ الذليلةُ لما استَعْبَدَ القَلْبَ . .

وعبودِيَّةُ القَلْبِ وأَسْرُه هي التي يترَتَّبُ عليها الثّوابُ والعقابُ ؛ فإنَّ المسلمَ لو أَسَرَهُ كافِرٌ أو استَرقَّهُ فاجِرٌ بغير حَقٍّ ؛ لم يَضُرَّهُ ذلك إذا كان قائمًا بما يَقْدِرُ عليه مِنَ الواجباتِ .

ومن استُعْبِدَ بِحَقٍّ ؛ إذا أَدّى حَقَّ اللَّهِ وحَقَّ مَواليه فلَهُ أَجْرانِ [(١)] ، ولو أُكْرِه على التَّكلُّمِ بالكُفْرِ ؛ فَتَكَلَّمَ به وقَلْبُهُ مطمَئِنٌّ بالإيمانِ لم يَضُرَّه ذلك .

وأَمّا مَن استُعْبِدَ قَلْبُهُ فصار عبدًا لغير اللَّهِ ؛ فهذا يَضُرُّهُ ذلك ؛ ولو كانَ في الظّاهرِ مَلِكَ النّاسِ .

فالحرِّيّةُ حريّةُ القَلْبِ ، والعبودِيّةُ عبودِيّةُ القَلْبِ ، كما أَنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ ؛ قال النبيُّ ﷺ : « **ليس الغِنَى عن كثرةِ العَرَضِ ، وإِنّما الغِنَى غِنَى النَّفْسِ** » [(٢)] .

وهذا - لَعَمْرُ اللَّهِ - إذا كانَ قد استعبَد قَلْبَهُ صورةٌ مُباحةٌ .

فَأَمَّا مَن استعبَدَ قَلْبَه صورةٌ مَحَرَّمةٌ - امرأةٌ أو صَبِيٌّ - فهذا هو العذابُ الذي لا يُدانيه عذابٌ .

وهؤلاء مِنْ أَعْظَمِ النّاسِ عَذابًا ، وأَقَلِّهم ثوابًا ، فإنَّ العاشِقَ لِصُورةٍ إذا بَقِيَ قلبُهُ مُتَعَلِّقًا بها ، مُستعبَدًا لها ؛ اجتمعَ له مِنْ أَنْواعِ الشَّرِّ

---

(١) كما صحّ عن النبي ﷺ فيما رواه عنه البُخاريُّ (رقم : ٩٧) ومسلم (١٥٤) والنسائي (٦ / ١١٥) والترمذي (١١١٦) والدارمي (٢ / ١٥٤ - ١٥٥) والطيالسي (٥٢٠) وسعيد بن منصور (٩١٣) و (٩١٤) وأحمد (٤ / ٤٠٢ و ٤٠٥) عن أبي موسى الأَشعريِّ قال : قال رسولُ اللّه ﷺ :
« **ثلاثةٌ يُؤتَونَ أُجورَهم مرّتين : رجل كانت له أَمَةٌ فأحْسَنَ تأديبَها ، وعلَّمها فأحسن تعليمَها ، ثم أعتقها فتزوّجها ، ومملوك أعطى حقّ رَبِّه عزّ وجلّ ، وحقّ مواليه ، ورجلٌ آمن بكتابه وبمحمدٍ** ﷺ » .

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٤٦) ومسلم (١٠٥١) والترمذي (٢٣٧٣) وأحمد (٢ / ٢٤٣ و ٣٨٩ و ٣٩٠) والحميدي (١٠٦٣) وابن ماجه (٤١٣٧) والقُضاعي (١٢١١) والبغوي (٤٠٤٠) عن أبي هُريرة .

والفساد ما لا يُحْصيه إلا رَبُّ العبادِ .

ولو سَلِمَ مِنْ فعلِ الفاحشةِ الكُبْرى ؛ فدوامُ تَعَلُّقِ القَلْبِ بها (١) بلا فِعْلِ الفاحشةِ أَشَدُّ ضَرَرًا عليه مِمَّنْ يفعلُ ذَنبًا ثم يتوب منه ويزولُ أَثَرُهُ مِنْ قلبِهِ (٢) .

وهؤلاءِ يُشَبَّهُونَ بالسُّكارى والمجانينِ ، كما قيل :

سُكْرانِ سكرُ هوىً وسُكْرُ مُدامةٍ ... ومتى إفاقَةُ مَنْ به سُكْرانِ

وقيل :

قالوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوى ، فَقُلْتُ لهم ... العِشْقُ أعظمُ مِمّا بالمجانينِ

العِشْقُ لا يستفيقُ الدَّهرَ صاحِبُهُ ... وإنما يُصْرَعُ المجنونُ في الحينِ

ومِنْ أَعْظمِ أسباب هذا البلاءِ إعراضُ القلبِ عن اللَّهِ ؛ فإنَّ القلبَ إذا ذاقَ طَعْمَ عبادةِ اللَّهِ والإخلاص له ؛ لم يكن عنده شيءٌ قَطُّ أَحلى من ذلكَ ولا أَلَذَّ ولا أَطْيَبَ .

والإنسان لا يَتْرُكُ محبوبًا إلّا بمحبوبٍ آخر يكونُ أَحَبَّ إليه منه ، أو خوفًا مِنْ مكروهٍ .

فالحبُّ الفاسِدُ إنّما ينصرِفُ القَلْبُ عنه بالحبِّ الصالحِ ، أو بالخَوْفِ مِنَ الضَّرَرِ .

قال تعالى في حقِّ يوسُفَ : ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [يوسف : ٢٤] .

---

(١) مَعَ الغفلةِ عن ذِكر اللَّه تعالى ، ودون مُجاهدةٍ لنفسِهِ .

(٢) فهو يُضعف الإيمان ، ويُقَلِّل قِيمةَ التعلُّق باللَّه تعالى ، مِمّا يُؤدّي إلى المعاصي والمخالفات الشرعية .

فاللَّهُ يَصْرِفُ عن عبدِهِ ما يسوؤهُ مِنَ المَيْلِ إلى الصُّورِ والتَّعَلُّقِ بها ، ويصرفُ عنه الفحْشاءَ بإخلاصِهِ للَّهِ .

ولهذا يكونُ قبلَ أَنْ يذوقَ حلاوةَ العبودِيَّةِ لِلَّهِ والإخلاصِ له ، تَغْلِبُهُ نَفسُهُ على اتّباع هواها ، فإذا ذاقَ طَعْمَ الإخلاصِ وقَوِيَ في قلْبِهِ ؛ انقهرَ له هواه بلا علاجٍ .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ والمنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أكبرُ** ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

فإِنَّ الصَّلاةَ فيها دَفْعٌ للمَكْروه ؛ وهو الفحشاءُ والمنكَرُ ، وفيها تَحْصيلُ المحبوبِ ؛ وهو ذِكْرُ اللَّهِ .

وحصولُ هذا المحبوبِ أكبرُ مِنْ دَفْعِ ذلِك المكروهِ ، فإِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ عبادَةٌ للَّهِ ، وعبادةُ القلبِ لِلَّهِ مقصودَةٌ لذاتِها ، وأَمّا انْدِفاعُ الشرِّ عنه فهو مقصودٌ لغيرِهِ على سبيل التَّبَع .

والقَلْبُ خُلِقَ يُحِبُّ الحقَّ ويريدُهُ ويطلُبُه ، فلمّا عَرَضتْ له إرادةُ الشرِّ طَلَبَ دَفْعَ ذلك ، فإنَّها تُفسِدُ القَلْبَ كما يَفْسُدُ الزّرْعُ بما يَنْبُتُ فيه مِنَ الدَّغَلِ (١) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **قد أَفْلَحَ مَنْ زكَّاها * وَقَدْخابَ مَنْ دسَّاها** ﴾ [الشمس : ٩ - ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزكّى * وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى** ﴾ [الأعلى : ١٤ - ١٥] .

---

(١) هو ما يُفسِدُ الأَشياءَ إذا دَخَلَ إليها .

وقال : ﴿ **قُلْ للمُؤْمِنين يُغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهم وَيَحْفَظُوا فروجَهم ذلك أَزكى لَهُمْ** ﴾ [النُّور : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُهُ ما زَكَى مِنْكم مِنْ أَحَدٍ أبدًا** ﴾ [النُّور : ٢١] .

فجعلَ سبحانه غَضَّ البَصَرِ وحِفْظَ الفَرْجِ هو أَزْكَى للنَّفسِ ، وبَيَّنَ أَنَّ تَرْكَ الفواحشِ مِنْ زكاةِ النّفوسِ ، وزَكاةُ النّفوسِ تتضَمَّنُ زوالَ جميعِ الشّرورِ ؛ مِنَ الفواحشِ ، والظُّلمِ ، والشّركِ ، والكَذِبِ وغيرِ ذلك .

وكذلك طالِبُ الرّئاسةِ والعلوِّ في الأرْضِ ؛ قلبُهُ رقيقٌ لمَنْ يُعينُهُ عليها ، ولو كانَ في الظّاهرِ مُقدَّمَهم والمُطاعَ فيهم ، فهو في الحقيقةِ يَرْجُوهم ويخافُهم ، فَيبْذُلُ لهم الأمْوالَ والولاياتِ ، ويَعْفُو عمّا يَجْتَرِحونَه ؟ ليطيعُوه ويُعينُوه ؛ فهو في الظّاهِرِ رئيسٌ مُطاعٌ ، وفي الحقيقةِ عبدٌ مطيعٌ لهم (١) .

والتَّحقيقُ أَنَّ كلاهما فيه عبوديّةٌ للآخرِ ، وكلاهما تاركٌ لحقيقة عِبَادَةِ اللَّهِ ، وإذا كان تعاوُنُهما على العلُوِّ في الأرْضِ بغيرِ الحقِّ ؛ كانا بمنزلةِ المتعاونيْن على الفاحشةِ أو قَطْعِ الطّريق ؛ فكلُّ واحدٍ مِنَ الشَّخْصَيْن - لهواه الذي اسْتعبَدَهُ واستَرَقَّهُ - مُسْتَعْبَدٌ للآخرِ .

---

(١) فليتأمَّل هذا جيِّدًا الحزبيُّون المخالفون للكتاب والسُّنَّة ، بصُدودِهم عن عُلمائهم ، ومخالفتهم لأهل السُّنَّة ؛ إرضاءً لِمَنْ نصَّبوهم وجعلوهم « قياديّين » لهم ولغيرهم ، فهم يخشوْن ذهاب المنصبِ والكُرسيّ والجاه والرئاسة ، لذا فهم لا يسمعون ، وإن سمعوا لا يستجيبون ، وإنِ اسْتَجابوا فَهُم يُمَوِّهون !!

وهكذا أَيضًا طالِبُ المالِ ؛ فإنَّ ذلك يستعبِدُهُ ويَسترِقُّهُ .

وهذه الأمورُ نوعان :

منها : ما يحتاجُ العبدُ إليه ؛ كما يحتاجُ إليه مِنْ طعامِهِ وشرابِهِ وَمَسْكَنِهِ وَمَنْكَحِهِ ، ونحو ذلك ، فهذا يطلُبه مِنَ اللَّهِ ، ويَرْغَبُ إليه فيه ، فيكونُ المالُ عنده يستعمِلُهُ في حاجَتِهِ بمنزلةِ حمارِهِ الذي يركَبُهُ ، وبساطِهِ الذي يَجْلِسُ عليه ، بل بمنزلةِ الْكَنِيفِ الذي يَقْضِي فيه حاجَتَه ؛ مِنْ غير أَنْ يستَعْبِدَه ، فيكونَ هَلُوعًا ، ﴿ **إذا مَسَّه الشرُّ جَزُوعًا * وإذا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا** ﴾ [المعارج : ٢٠ ، ٢١] .

ومنها : ما لا يحتاجُ العبدُ إليه ، فهذا لا ينبَغي له أَنْ يُعلِّقَ قَلْبَه بها ، فإذا تعَلَّقَ قَلْبُه بها صارَ مُسْتَعْبَدًا لها ، وربما صارَ مُعْتَمِدًا على غيرِ اللَّهِ ، فلا يَبْقى معه حقيقةُ العبادةِ لِلَّهِ ؛ ولا حقيقةُ التوكُّلِ عليه ؛ بل فيه شُعبةٌ من العبادةِ لغيرِ اللَّهِ وشعبةٌ مِنَ التوَكُّلِ على غيرِ اللَّهِ ، وهذا مِنْ أَحَقِّ الناسِ بقوله ﷺ : « **تَعِسَ عبدُ الدرهمِ ، تَعِسَ عبدُ الدينار ، تَعِسَ عبدُ القطيفة ، تَعِسَ عبدُ الخميصةِ** » (١) ، وهذا هو عبدُ هذه الأمورِ ؛ فلو طَلَبها مِنَ اللَّهِ ؛ فإنَّ اللَّهَ إذا أَعطَاهُ إِيّاها رَضِيَ ، وإذا مَنعه إيّاها سَخِطَ ، وإنّما عَبْدُ اللَّهِ مَنْ يُرضِيه ما يُرضِي اللَّهَ ويُسْخِطُهُ ما يُسْخِطُ اللَّهَ ، ويُحِبُّ ما أَحبَّهُ اللَّهُ ورسولُهُ ، ويبغِضُ ما أبغضهُ اللَّهُ ورسولُهُ ، ويُوالي أولياءَ اللَّهِ ، ويُعادي أعداءَ اللَّهِ تعالى .

وهذا هو الذي استكملَ الإيمانَ ؛ كما في الحديث :

---

(١) تقدّم تخريجه (ص ٦٣) .

« مَنْ أَحَبَّ للَّهِ وأبغَضَ لِلَّهِ ، وأَعْطى للَّهِ ومنعَ للَّهِ ؛ فقد استَكْمَلَ الإيمانَ » [(١)] .

وقال : « أَوْثَقُ عُرى الإيمانِ : الحبُّ في اللَّهِ ، والبُغْضُ في اللَّهِ » [(٢)] .

وفي « الصحيح » [(٣)] عنه ﷺ : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوةَ الإيمانِ : مَنْ كانَ اللَّهُ ورسولُهُ أَحبَّ إليه مِمّا سِواهما ، ومَنْ كان يُحِبُّ المرءَ لا يُحِبُّه إلا للَّهِ ، ومَنْ كان يَكْرَهُ أَنْ يرجِعَ في الكفرِ بعدَ إذْ أنقذَه اللَّهُ منه كما يَكْرَهُ أَنْ يُلْقى في النّارِ » .

فهذا وافَقَ رَبَّه فيما يُحِبُّه وما يَكْرَهُهُ ، فكانَ اللَّهُ ورسولُهُ أَحَبَّ إليه مِمّا سِوَاهُما ، وأَحَبَّ المخلوقَ للَّهِ لا لغَرَضٍ آخرَ ، فكانَ هذا من تمامِ حُبِّهِ للَّهِ ، فإنَّ مَحَبَّةَ محبوبِ المحبوبِ مِنْ تمامِ مَحَبَّةِ المحبوبِ ، فإذا أَحبَّ أنبياءَ اللَّهِ وأولياءَ اللَّهِ لأَجْلِ قِيامِهِم بمحبوباتِ الحَقِّ لا لشيءٍ

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٨١) والطبراني في « الكبير » (٧٦١٣) و (٧٧٣٧) والبغوي (١٣/ ٥٤) بسندٍ حَسن عن أبي أمامَة .

(٢) حديث حَسَنٌ له طُرُقٌ عدّة ، عن عدد مِن الصحابة ، أجودُ هذه الطرق ما رواه الإمام الطبراني في « المعجم الكبير » (١٠٣٥٧) عن ابن مسعود ، بسند حَسَن إن شاء اللَّه .
ولي في طُرُق هذا الحديثِ وتخريجها جُزْءٌ مُفْرَدٌ .
(تنبيه) : عُزِيَ الحديثُ بلفظ : « **أوثق عرى الإسلام الحب في اللّه** » في « موسوعة أطراف الحديث النبوي » (٤ / ٢٨) لـ : (م إيمان ٢٠٤) أي : « صحيح مسلم » ! وليس لذلك أصلٌ !!
وفي هذا الكتاب من مثل هذا الوَهم - وغيره - الكثير ، فحبّذا لو كان مُتقنًا لكان فيه نَفْعٌ عظيمٌ ... ولكن !!
ثم رأيتُ أنَّ بعضَ إخواننا قد ذكر أنَّ هناك تأليفًا له عنوانُهُ :
« احتجاج أصحاب الحديث على موسوعة أطراف الحديث » !

(٣) تقدم تخريجه (ص ٤٨) .

آخرَ ؛ فقد أَحَبَّهم للَّهِ لا لغيرِهِ ، وقد قال تعالى : ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّه بقومٍ يُحِبُّهم ويُحبُّونَه أَذلَّةٍ على المؤمنين أَعِزَّةٍ على الكافرين** ﴾ [المائدة : ٥٤] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **قُلْ إنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ اللَّهَ فاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُم اللَّهُ** ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فإنَّ الرّسولَ يأْمُرُ بما يُحِبُّ اللَّهُ ، ويَنْهى عمَّا يُبْغِضُهُ اللَّهُ ، ويفعلُ ما يُحِبُّه اللَّهُ ، ويُخْبِرُ بما يُحِبُّ اللَّهُ التصديقَ به .

فَمَنْ كان مُحِبًّا لِلَّهِ لزِمَ أَنْ يَتَّبِعَ الرّسولَ ، فَيُصَدِّقَهُ فيما أخبرَ ، ويطيعَه فيما أَمرَ ، ويتأَسَّى به فيما فعلَ ، ومَنْ فعلَ هذا ، فقد فعلَ ما يُحِبُّه اللَّهُ ، فيُحِبُّهُ اللَّهُ [(١)] .

فجعلَ اللَّهُ لأَهْلِ مَحبَّتِهِ علامَتَيْنِ : اتّباعَ الرّسولِ والجهادَ في سبيلِهِ .

وذلك لأنَّ **الجهادَ حقيقتُهُ الاجتهادُ في حُصولِ ما يُحِبُّهُ اللَّهُ مِنَ الإيمانِ ، والعملِ الصَّالحِ ، ومِنْ دَفْعِ ما يُبْغِضُهُ اللَّهُ مِنَ الكُفْرِ ، والفُسوقِ والعِصْيانِ** [(٢)] ، وقد قال تعالى : ﴿ **قُلْ إنْ كان آباؤكم وَأَبناؤكم وَإِخوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْترَفْتُمُوها وتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إليكمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسولِهِ وَجِهَادٍ في سبيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّه بأَمْرِهِ** ﴾ [التوبة : ٢٤] .

فتوعَّد مَنْ كانَ أَهْلُهُ ومالُه أَحَبَّ إليه مِنَ اللَّهِ ورسولِهِ والجهادِ في سبيلِهِ بهذا الوعيدِ .

---

(١) وهذا مِمّا يغفلُ أو يتغافلُ عنه كثيرٌ من ذوي الأهواءِ وأصحاب البِدَع !

(٢) هذا هو المعنى الصحيح الشاملُ للجهاد .

بل قد ثَبَتَ عنه ﷺ في « الصَّحيحِ » (١) أنّه قال :

« **والذي نَفْسي بيده ؛ لا يُؤْمِنُ أحدُكم حتى أكونَ أَحَبَّ إليه مِنْ وَلَدِهِ ووالدِهِ والنّاسِ أَجْمَعين** » .

وفي « الصَّحيح » (٢) أَنَّ عمر بن الخطاب قال له : يا رسول اللَّهِ ! واللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كلّ شيءٍ إِلا مِنْ نَفْسِي .

فقال : « **لا يا عمرُ ! حتى أَكُونَ أَحَبَّ إليك مِنْ نفسك** » .

فقال : فواللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي .

فقال : « **الآنَ يا عمرُ** » .

فحقيقةُ المحبّة لا تَتِمُّ إِلا بموالاةِ المحبوبِ ، وهو موافقَتُهُ في حُبِّ ما يُحِبُّ وبُغْضِ ما يُبْغِضُ ، واللَّهُ يُحِبُّ الإيمانَ والتَّقوى ، ويُبْغِضُ الكُفْرَ والفسوقَ والعِصْيانَ .

ومعلومٌ أَنَّ الحبَّ يُحرِّكُ إرادةَ القَلْبِ ، فكلّما قَوِيَتِ المحَبَّةُ في القَلْبِ طَلَبَ القلبُ فِعْلَ المحبوباتِ ، فإذا كانتِ المحبَّةُ تامّةً استلزمتْ إرادةً جازمةً في حُصولِ المحبوباتِ ؛ فإذا كان العبدُ قادرًا عليها حَصَّلَها ، وإن كانَ عاجِزًا عنها فَفَعَلَ ما يَقْدِرُ عليه من ذلك ؛ كان له كأَجْرِ الفاعِلِ ؛ كما قال النبيُّ ﷺ : « **مَنْ دعا إلى هُدىً كان له مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجورِ مَن اتَّبَعَهُ ؛ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ من أُجورِهِم شيءٌ ، ومَنْ دعا**

---

(١) رواه البخاري (رقم : ١٥) ومسلم (٤٤) والنَّسائي (٨ / ١١٤) عن أنس .
ورواه البخاري (رقم : ١٤) عن أبي هريرة .

(٢) رواه البخاري (رقم : ٦٦٣٢) عن عُمر .

إلى ضلالةٍ كان عليه مِنَ الوِزْرِ مِثْلُ أَوْزَارِ مَنِ اتَّبعه ؛ مِنْ غير أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوزارِهم شيءٌ » [١] .

وقال : « **إنَّ بالمدينةِ لَرِجالًا ما سِرْتُمْ مَسيرًا ولا قَطَعْتُم واديًا إلا كانوا مَعَكم** » .

قالوا : وهم بالمدينة ؟!

قال : « **وهم بالمدينةِ ؛ حَبَسَهُم العُذْرُ** » [٢] .

والجهادُ : هو بَذْلُ الوسْعِ - وهو كلُّ ما يُمْلكُ مِنَ القُدْرَةِ - في حصولِ محبوبِ الحَقِّ ، ودَفْعِ ما يكرَهُه الحقُّ .

فإذا تركَ العبدُ ما يَقْدِرُ عليه مِنَ الجهادِ ؛ كان دليلًا على ضَعْفِ مَحَبَّةِ اللَّهِ ورسولِهِ في قلبه .

ومعلومٌ أَنَّ المحبوباتِ لا تُنالُ غالبًا إِلّا باحتمال المكروهاتِ ، سواءٌ كانت مَحَبَّةً صالحةً أو فاسدةً .

فالمُحِبُّونَ للمالِ والرئاسةِ والصُّوَرِ ، لا ينالونَ مطالِبَهم إِلّا بضرَرٍ يلحَقُهم في الدّنيا ، مع ما يُصيبُهم مِنَ الضَّرَرِ في الدّنيا والآخرَةِ .

فالمُحِبُّ للَّهِ ورسولِهِ إذا لم يَحْتَمِلْ ما يَرى ذو الرَّأْيِ مِنَ المحبّين لغيرِ اللَّهِ مِمّا يَحْتَمِلونَ في سبيلِ حُصولِ مَحْبوبهم ؛ دلَّ ذلك على ضَعْفِ مَحَبَّتِهِم لِلَّهِ ؛ إذا كان ما يسلُكُهُ أولئك - في نَظَرِهم - هو الطَّريقَ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٤) وأبو داود (٤٦٠٩) والترمذي (٢٦٧٤) والدارمي (١ / ١٢٦ - ١٢٧) وابن ماجه (٢٠٦) وأحمد (٢ / ٣٩٧) والبغوي (١ / ٢٣٢) عن أبي هريرة .

(٢) رواه البخاري (٤٤٢٣) وأحمد (٣ / ١٠٣) وأبو داود (٢٥٠٨) وابن ماجه (٢٧٦٤) عن أنس . ورواه مسلم (١٩١١) وابن ماجه (٢٧٦٥) وأحمد (٣ / ٣٤١) عن جابر .

الذي يشيرُ به العَقْلُ .

ومِنَ المعلومِ أَنَّ المؤمنَ أَشَدُّ حُبًّا للَّهِ ، كما قال تعالى : ﴿ **ومِنَ النّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دونِ اللَّهِ أَنْدادًا يُحِبُّونَهم كَحُبِّ اللَّهِ والذين آمنوا أَشَدُّ حُبًّا للَّهِ** ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

نعم ؛ قد يسلكُ المحِبُّ - لضَعْفِ عَقْلِه وفساد تَصَوُّرِه - طريقًا لا يُحَصِّلُ بها المطلوبَ ، فَمِثْلُ هذه الطّريق لا تُحْمَدُ إذا كانتِ المحبّةُ صالحةً محمودةً ، فكيف إذا كانت المحبَّةُ فاسدةً والطّريقُ غيرَ موصِلٍ ؟ كما يفعَله المتهوِّرون في طلب المالِ والرئاسةِ والصُّورِ في حُبِّ أُمورٍ تُوجِبُ لهم ضَرَرًا ، ولا تُحَصِّلُ لهم مَطْلوبًا ! وإنّما المقصودُ الطُّرقُ التي يَسْلُكُها العقلُ السَّليمُ لحصولِ مطْلوبه .

وإذا تَبَيَّنَ هذا ؛ فكُلَّما ازدادَ القلْبُ حُبًّا للَّهِ ازْدادَ له عبوديّةً ، وكلما ازدادَ لَهُ عبوديةً ، ازدَادَ له حُبًّا وفَضَّله عمّا سواه ، والقلبُ فقيرٌ بالذّاتِ إلى اللَّهِ مِنْ وَجْهين :

مِنْ جهَةِ العبادةِ ، وهي العِلَّةُ الْغائِيّةُ [١] .

ومِنْ جهَةِ الاستعانةِ والتوكُّلِ ؛ وهي العِلَّة الفَاعِلَة [٢] .

فالقَلْبُ لا يَصْلُحُ ، ولا يُفْلِحُ ، ولا يَلْتَذُّ ، ولا يُسَرُّ ، ولا يطيبُ ، ولا يَسْكُنُ ، ولا يطمئِنُّ إلا بعبادةِ رَبِّه وحُبِّه والإنابةِ إليه ،

---

(١) أي : الغاية التي خَلَقَ اللَّهُ تعالى الخَلْقَ من أجلها ، وهي ذاتُ العبادة ، وانظر « درء التعارض » (١ / ٣٢٩) و (٣ / ١١٠) .

(٢) ويُقال : الفاعِليّة ، أي : أنّه لا يستطيع القيام بلوازم العبادة وأركانها إلّا إذا يسّر اللَّهُ له فِعْلَها وسُبُلَها ، وذلك بالاستعانةِ باللَّه والتوكُّل عليه : انظر « التعريفات » (ص ١٦٠) للجُرجانيّ .

ولو حَصَلَ له كلُّ ما يَلْتَذُّ به مِنَ المخلوقاتِ لم يَطْمَئِنَّ ولم يَسكُنْ ؛ إذ فيه فَقْرٌ ذاتِيٌّ إلى رَبِّه ، ومِنْ حيثُ هو معبودُهُ ، ومحبوبُهُ ، ومطلوبهُ ، وبذلك يحصلُ له الفَرَحُ والسّرورُ واللّذةُ والنّعْمَةُ والسُّكونُ والطّمَأْنينَةُ .

وهذا لا يَحْصلُ إلَّا بإعانةِ اللَّهِ له ، فإنَّه لا يَقْدِرُ على تحصيلِ ذلك له إلا اللَّهُ ، فهو دائمًا مفتقرٌ إلى حقيقةِ : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ ، فإنّه لو أُعينَ على حُصولِ ما يُحِبُّه ويطلبُه ويشتهيهِ ويريدُه ، ولم يَحْصُلْ له عبادَةٌ للَّهِ ؛ فلن يَحْصُلَ إلّا على الألَمِ والحسرةِ والعذابِ ، ولن يخْلُصَ مِن آلامِ الدنيا ونَكَدِ عَيْشِها ، إلّا بإخلاصِ الحُبِّ للَّهِ ، بحيثُ يكونُ هو غايةَ مُرادِهِ ، ونهايةَ مَقْصودِهِ ، وهو المحبوبَ له بالقَصْدِ الأوّلِ ، وكلُّ ما سواهُ إنّما يُحِبُّه لأَجْلِهِ ، لا يُحِبُّ شيئًا لذاتِهِ إلا اللَّه .

فمتى لم يَحْصل له هذا ؛ لم يكُنْ قد حَقَّقَ حقيقةَ : « لا إله إلا اللَّهُ » ، ولا حَقَّقَ التّوحيد والعبودِيّةَ والمحبّةَ للَّهِ ، وكانَ فيه مِنْ نَقْصِ التّوحيد والإيمانِ - بل مِنَ الألَمِ والحَسْرةِ والعذابِ - بحسبِ ذلك ، ولو سعى في هذا المطلوب ، ولم يَكُنْ مُستعينًا باللَّهِ مُتَوَكِّلًا عليه ، مفتَقِرًا إليه في حُصولِهِ ، لم يَحْصُلْ له ، فإنّه ما شاءَ اللَّهُ كان ، وما لم يَشأْ لم يَكُنْ ، فهو مفتَقِرٌ إلى اللَّهِ ؛ مِنْ حيثُ هو المطلوبُ المحبوبُ المُرادُ المعبودُ ، ومِنْ حيثُ هو المسؤولُ المستعانُ به المُتَوَكَّلُ عليه ، فهو إلهُهُ لا إلهَ له غيرُهُ ، وهو رَبُّه لا رَبَّ له سواه .

ولا تَتِمُّ عبودِيَّتُهُ للَّهِ إلا بِهذَيْنِ ؛ فمتى كان يُحِبُّ غيرَ اللَّهِ لذاتِهِ ،

أو يلتَفِتُ إلى غيرِ اللَّهِ أنَّه يُعينُهُ ؛ كان عَبْدًا لما أَحَبَّه وعَبْدًا لما رَجاه ؛ بِحَسَبِ حُبِّه له ورجائِهِ إيّاه ، وإذا لم يُحِبَّ أَحَدًا لذاتِهِ إلا اللَّه ، وأَيُّ شيءٍ أَحَبَّه سواه فإنّما أَحَبَّه له ، ولم يَرْجُ قطُّ شيئًا إلَّا اللَّهَ ، وإذا فعل ما فَعَلَ مِنَ الأسبابِ أو حصَّل ما حصَّل منها ؛ كان مُشاهِدًا أَنَّ اللَّهَ هو الذي خَلَقَها وقَدَّرَها وسَخَّرها له ، وأَنَّ كُلَّ ما في السَّماواتِ والأَرْضِ فاللَّهُ رَبُّهُ ومليكُهُ وخالِقُهُ ومُسَخِّرُهُ ، وهو مفتَقِرٌ إليه ؛ كان قد حَصَلَ لَه مِنْ تمامِ عُبودِيَّتِهِ للَّهِ بِحَسَبِ ما قُسِمَ له من ذلك .

والنّاسُ في هذا على درجاتٍ متفاوتَةٍ ، لا يُحْصِي طُرُقَها إلّا اللَّهُ ؛ فأَكْمَلُ الخَلْق وأفضَلُهم وأعلاهم وأقرَبُهم إلى اللَّهِ وأقواهم وأهداهم : أَتَمُّهم عبوديةً للَّهِ مِنْ هذا الوجه .

وهذا هو حقيقةُ دينِ الإسلامِ الذي أرسلَ اللَّهُ به رُسُلَه وأنزلَ به كُتُبَه ، هو أَنْ يستَسْلِمَ العَبْدُ للَّهِ لا لغيرِهِ ، فالمستَسْلِمُ له ولغيره مُشْرِكٌ ، والممتَنِعُ عن الاستسلامِ له مستَكْبِرٌ .

وقد ثبتَ في « الصَّحيحِ » (١) عن النبيِّ ﷺ أَنَّ الجَنَّةَ لا يدخُلُها مَنْ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ، كما أَنَّ النّارَ لا يَخْلُدُ فيها مَنْ في قلبهِ مثقالُ ذَرَّةٍ مِنْ إيمانٍ ، فجعلَ الكِبْرَ مقابِلًا للإيمانِ ، فإنَّ الكِبْرَ ينافِي حقيقةَ العبودِيَّةِ .

كما ثَبَتَ في « الصَّحيحِ » (٢) عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « **يقولُ**

---

(١) رواه مسلم (رقم : ٩١) والترمذي (١٩٩٨) و (١٩٩٩) وأبو داود (٤٠٩١) وابن ماجه (٥٩) و (٤١٧٣) والطبراني في « الكبير » (١٠٠٠٠) عن ابن مسعودٍ .

(٢) رواه مسلم (رقم : ٢٦٢٠) بلفظ الحديث النبويّ : « **العِزّ إزارُهُ** .. » . وقال الحُمَيْدي : =

اللَّهُ : العَظَمَةُ إِزاري ، والكبرياءُ رِدائِي ، فَمَنْ نازَعَنِي واحدًا منهما عذَّبتُه » .

فالعَظَمَةُ والكِبرياءُ مِنْ خصائصِ الرّبوبيّةِ ، والكبرياءُ أَعلى من العَظَمةِ ، ولهذا جعلها بمنزلةِ الرداءِ ، كما جَعَلَ العظمةَ بمنزلةِ الإِزار .

ولهذا كان شعارُ الصّلواتِ والأذانِ والأعيادِ هو التَّكْبيرَ وكان مُسْتَحبًا في الأمكِنةِ العاليةِ كالصّفا والمَروَةِ (١) ، وإذا علا الإنسانُ شَرَفًا (٢) ، أو رَكِبَ دابةً (٣) ، ونحوَ ذلك ، وبه يُطْفَأُ الحريقُ وإِنْ عَظُمَ (٤) .

= « كذا فيما رأينا مِن نُسخ « كتاب مسلم » وأخرج البَرْقاني مِن الطريق الذي أخرجه مسلمٌ عن أبي سعيدٍ وأبي هُرَيْرة .. » فذكره كما ذكره المصنِّفُ ثم قال : « وهكذا أخرجه أبو مسعود في كتابه » .

كذا في « جامع الأصول » (١٠ / ٦١٣) و « الترغيب والترهيب » (٤ / ١٦) .

وأخرجه أبو داود (٤٠٩٠) وابن ماجه (٤١٧٤) وأحمد (٢ / ٤١٤ و ٢٤٨ و ٣٧٦ و ٤٢٧ و ٤٤٢) باللفظ الذي ذكره المصنِّف .

(١) كما رواه مسلم (١٢١٨) وأبو داود (١٩٠٧) ومالك (١ / ٣٧٢) وابن ماجه (٣٠٧٤) عن جابر .

(٢) أَخرجه البخاريُّ (٦٣٨٥) ومسلم (١٣٤٤) وابن السنّي (٥١٩) ومالك (١ / ٤٢١) وأَبو داود (٢٧٧٠) وغيرهم عن ابن عمر .

(٣) كما رواه مسلم (١٣٤٢) والترمذي (٣٤٤٤) وأبو داود (٢٥٩٩) عن ابن عُمر .

(٤) أورد هذا الحديث المُصَنِّفُ رحمه اللَّه في « الكلم الطيب » (رقم : ٢٢١) مصدرًا له بصيغة التمريض : « يُذْكَر ... » .

وأخرجَ الحديثَ العُقيليُّ في « الضُّعفاء » (٢ / ٢٩٦) وابن عدي في « الكامل » (٤ / ١٤٦٩) وابن السُّنّي في « عمل اليوم والليلة » (٢٨٩ - ٢٩٢) مِن طرق عن عَمرو بن شعيب عن أبيه عن جَدِّه ، وهذه الطرق - إلى عَمْرٍو - كلُّها ضعيفةٌ جدًّا .

وله طُرُقٌ أخرى في « تاريخ جُرجان » (٤١٤) و « الكنى والأسماء » (٢ / ١٣٧) للدولابي ، و « الدعاء » (١٠٠١) و « الكامل » (٥ / ١٧٦٧) و « المطالب العالية » (٣٤٢٤) و « المقاصد الحسنة » ، فلعلّي أفرغُ - إن شاء اللَّه - لتنقيدها في موضعٍ آخَرَ .

وعند الأذانِ يهربُ الشّيطانُ [١] .

قال تعالى : ﴿ **وقال رَبُّكم ادعُوني أسْتَجِبْ لكم إنَّ الذين يَسْتَكْبِرون عن عبادتي سَيَدْخُلون جَهَنَّم داخِرين** ﴾ [غافر : ٦٠] .

وكلُّ مَن استَكْبَرَ عن عبادةِ اللَّهِ لا بُدَّ أَنْ يعبُدَ غَيْرَه ، فإنَّ الإنسانَ حسّاسٌ يتحَرَّك بالإرادةِ .

وقد ثبَتَ في « الصَّحيحِ » [٢] عن النبي ﷺ أنه قال : « **أَصْدَقُ الأسماءِ : حارِثٌ وهمَّام** » .

فالحارثُ : الكاسِبُ الفاعِلُ ، والهمّامُ : فَعَّالٌ مِنَ الهَمِّ ، والهمُّ أَوَّلُ الإرادةِ ، فالإنسانُ له إرادةٌ دائمًا ، وكلُّ إرادةٍ فلابُدَّ لها مِنْ مُرادٍ تَنْتَهي إليه ، فلابدَّ لكلِّ عبدٍ مِنْ مُرادٍ محبوبٍ هو مُنْتَهَى حُبِّه وإرادَتِهِ ، فَمَنْ لم يَكُنِ اللَّهُ معبودَه ومُنْتَهى حُبِّه وإرادَتِهِ ، بل اسْتَكْبَرَ عن ذلك ؛ فلابدَّ أَنْ يكونَ له مرادٌ محبوبٌ يستعبدُهُ غيرَ اللَّهِ فيكون عَبْدًا لذلك المرادِ المحبوبِ : إمّا المالُ ، وإمّا الجاهُ ، وإمّا الصُّوَرُ ، وإمّا ما يَتخِذُهُ

---

(١) كما رواه البخاري (٢ / ٦٩ - ٧٠) ومسلم (٣٨٩) ومالك (١ / ٦٩ - ٧٠) وأبو داود (٥١٦) والنسائي (٢ / ٢١ - ٢٢) عن أبي هُريرة .

(٢) رواه مسلمٌ (رقم : ٢١٣٢) ، ولكنْ لفظُه : « **أحب الأسماء إلى الله عبدُ الله وعبدُ الرحمن** » عن ابن عُمر .

ورواه الترمذي (٢٨٣٥) وأبو داود (٢ / ٥٨٤) .

وأمّا حديثُ : « **أصدق الأسماء الحارث وهمّام** » فقد رواه ابنُ وَهْبٍ في « جامعه » (ص ٧) عن عبد الله بن عامر اليَحْصِبي مرسلًا بإسناد صحيح .

وله شاهدٌ موصولٌ أخرجه أحمد (٤ / ٣٤٥) وأبو داود (٤٩٥٠) والنَّسائي (٦ / ٢١٨) عن أبي وَهْب الجُشَمي بسند فيه ضَعْفٌ ، فيقوى به إن شاء اللّه .

وانظر « موارد الأمان ... » (ص ٦٥ - ٦٦) .

إِلهًا مِنْ دُون اللَّهِ ؛ كالشَّمسِ ، والقمرِ ، والكواكبِ ، والأَوْثانِ ، وقُبور الأنبياءِ والصّالحين ، أو مِنَ الملائكةِ والأَنْبياءِ الذينَ يَتَّخِذُهم أَرْبابًا ، أو غيرِ ذلك مما عُبِد مِنْ دونِ اللَّهِ .

وإذا كانَ عَبْدًا لغيرِ اللَّهِ يكونُ مُشرِكًا ، وكلُّ مستكبرٍ فهو مشرِكٌ ، ولهذا كان فِرْعَوْنُ مِنْ أعظمِ الخَلْقِ استكبارًا عن عبادَةِ اللَّهِ ، وكان مُشْرِكًا ، قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَرسلنَا مُوسى بآياتِنا وسُلْطانٍ مُبينٍ إلى فِرْعَونَ وَهَامَانَ وقارونَ فقالُوا ساحِرٌ كَذّابٌ** ﴾ إلى قولِهِ : ﴿ **وَقَالَ مُوسى إنّي عُذْتُ بِرَبّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **كَذلكَ يَطْبَعَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتكبِّرٍ جَبَّارٍ** ﴾ [غافر : ٢٣ - ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ **وقارونَ وفرعونَ وهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ موسى بالبيِّناتِ فاستَكْبَرُوا في الأرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقين** ﴾ [العنكبوت : ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ **إنَّ فِرْعونَ عَلا في الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعًا يَستَضْعِفُ طائفةً منهم يُذَبِّح أَبناءَهم وَيَسْتَحْيي نساءَهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فانظر كيفَ كانَ عاقبةُ الظالمين** ﴾ [القصص : ٤٠] .

وقال : ﴿ **وَجَحَدُوا بِها واستَيْقَنَتْها أَنْفُسهم ظُلمًا وعُلوًّا فانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقبةُ المُفْسدين** ﴾ [النمل : ١٤] .

ومثلُ هذا في القرآنِ كثيرٌ .

وقد وُصِفَ فرعونُ بالشّرك في قولِهِ : ﴿ **وقال الملأُ مِنْ قومِ فِرعونَ أَتَذَرُ موسى وقومَه ليُفْسِدُوا في الأَرضِ ويَذَرَكَ وآلهتَكَ** ﴾ [الأعراف : ١٢٦] .

بل الاستِقْراءُ يدُلُّ على أنَّه كلَّما كان الرّجلُ أعْظَمَ استكبارًا عن عبادَةِ اللَّهِ ؛ كان أعظمَ إشْراكًا باللَّهِ ؛ لأنَّه كُلَّما استكبر عن عبادَةِ اللَّهِ ازداد فَقْرُهُ وحاجَتُهُ إلى المرادِ المحبوبِ الذي هو المقصودُ - مقصودُ القلبِ بالقَصْدِ الأَولِ - فيكون مُشْركًا بما استعبدَهُ مِنْ ذلك .

ولن يستَغْنيَ القلبُ عن جميعِ المخلوقاتِ إلَّا بأَنْ يكونَ اللَّهُ هو مولاه الذي لا يَعْبَدُ إلا إياه ، ولا يستعينُ إلا به ، ولا يتوكَّلُ إلا عليه ، ولا يَفْرَحُ إلا بما يُحِبُّه ويَرْضاه ، ولا يكرهُ إلّا ما يُبْغِضُهُ الربُّ ويكرَهُهُ ، ولا يُوالي إلا مَنْ والاه اللَّهُ ، ولا يعَادي إلا مَنْ عاداه اللَّهُ ، ولا يُحِبُّ إلا للَّهِ ، ولا يبغِضُ شيئًا إلا للَّهِ ، ولا يُعْطي إلا للَّهِ ، ولا يَمْنَعُ إلا للَّهِ .

فكلّما قَوِيَ إخلاصُ دِينِهِ للَّهِ كَمُلَتْ عُبودِيَّتُهُ واستغناؤه عَنِ المخلوقاتِ ، وبكمالِ عُبودِيَّتِهِ للَّهِ تَكْمُلُ تَبْرِئَتُهُ مِنَ الكِبْرِ والشّرْكِ .

والشّركُ غالِبٌ على النّصارى ، والكِبْرُ غالِبٌ على اليهودِ .

قال تعالى في النَّصارى : ﴿ **اتَّخذُوا أَحْبارَهم ورُهبانَهم أَرْبابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ والمَسيحَ ابن مريمَ وَمَا أُمِرُوا إلّا لِيَعْبُدُوا إلهًا وَاحِدًا لا إله إلّا هُوَ سُبْحانَه عمّا يُشْرِكون** ﴾ [التوبة : ٣١] .

وقال في اليهودِ : ﴿ **أفكُلّما جاءَكم رسولٌ بما لا تَهوى أنْفُسُكم استكبَرْتُم ففريقًا كَذَّبْتُم وفريقًا تَقْتُلون** ﴾ [البقرة : ٨٧] .

وقال تعالى : ﴿ **سأَصْرِفُ عن آياتيَ الذين يَتَكَبَّرون في الأَرْضِ بغيرِ الحقِّ وإنْ يروْا كلَّ آيةٍ لا يُؤمِنُوا بها وإنْ يَرَوْا سبيلَ الرّشدِ لا يَتَّخِذُوه سبيلًا**

وإنْ يَرَوْا سبيلَ الغيِّ يَتَّخِذُوهُ سبيلًا ﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

ولمّا كان الكِبْرُ مُسْتَلْزِمًا للشرك ، والشّركُ ضِدُّ الإسلامِ - وهو الذنبُ الذي لا يَغْفِرُهُ اللَّهُ - قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغفرُ أَنْ يُشْرَكَ به وَيغْفِرُ ما دون ذلك لِمَنْ يشاءُ وَمَنْ يشرك بِاللَّهِ فَقَدِ افترى إِثمًا عظيمًا ﴾ [النساء : ٤٨]

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به ويَغْفِرُ ما دُون ذلك لِمَنْ يشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ باللَّهِ فقد ضَلَّ ضلالًا بعيدًا ﴾ [النساء : ١١٦] .

كان الأنبياءُ جميعُهم مبعوثِينَ بدينِ الإسلامِ ، فهو الدّينُ الذي لا يَقْبَلُ اللَّهُ غَيْرَهُ ، لا مِنَ الأَوَّلينِ ولا مِنَ الآخرين :

قال نوحٌ : ﴿ فإِنْ تَوَلَّيتُم فما سَأَلْتُكم مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلّا على اللَّهِ وأُمِرْتُ أَنْ أَكونَ مِنَ المسلمين ﴾ (١) .

وقال في حقِّ إِبراهيمَ : ﴿ ومَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبراهيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نفسَه ولقد اصطفيْناه في الدّنيا وإِنَّه في الآخرَةِ لَمِنَ الصّالحين * إِذ قالَ لَه رَبُّه أَسْلِمْ قال أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالمين ﴾ إلى قولِهِ : ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُم مُسْلِمونَ ﴾ [البقرة ١٣٠ - ١٣٢] .

وقال يوسفُ : ﴿ توفَّني مُسْلِمًا وأَلْحِقْني بالصّالحين ﴾ (٢) .

وقال موسى : ﴿ يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُم آمنتُم باللَّهِ فَعَلَيْه تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُم مُسْلِمين * فقالوا على اللَّهِ تَوَكَّلْنا ﴾ (٣) .

---

(١) كما في سورة يونُس : ٧٢ ، حكاية عنه .

(٢) في سورة يوسف : آية ١٠١ ، حكاية عنه .

(٣) في سورة يونُس : آية ٨٤ - ٨٥ ، حكايةً عنه .

وقال تعالى : ﴿ إنّا أنزلنا التّوراةَ فيها هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بها النبيُّونَ الّذين أَسْلَمُوا للذين هادُوا ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقالت بلقيس : ﴿ ربِّ إِنّي ظَلَمتُ نَفْسي وَأَسْلَمْتُ مع سليمانَ للّهِ ربِّ العالمين ﴾ (١) .

وقال : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلى الحَوَارِيِّين أَنْ آمنُوا بي وبرَسُولي قالوا آمَنّا واشهَدْ بأَنَّنا مُسْلمون ﴾ [المائدة : ١١١] .

وقال : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عندَ اللّهِ الإسلامُ ﴾ [آل عمران : ١٩] .

وقال : ﴿ ومَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ منه ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِيْنِ اللّهِ يَبْغونَ وَلَه أَسْلَمَ مَنْ في السّماواتِ والأَرْضِ طَوْعًا وَكَرهًا ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

فذكر إِسلامَ الكائناتِ طَوْعًا وكَرْهًا ؛ لأَنَّ المخلوقاتِ جميعها مُتَعَبِّدَةٌ له التعبُّدَ العامَّ ، سواءٌ أَقَرَّ المُقرُّ بذلك أو أنكَرَهُ ، وهم مَدِينون له مُدبَّرون ، فهم مُسلمون له طَوْعًا وكَرْهًا ، ليس لأَحدٍ مِنَ المخلوقاتِ خروجٌ عَمّا شاءه وقدَّره وقَضاه ، ولا حولَ ولا قُوّةَ إلا به ، وهو ربُّ العالمين ومليكُهم ، يُصَرِّفُهم كيفَ يشاءُ ، وهو خالِقُهم كلِّهم ، وبارئُهم ومُصَوِّرُهم ،

كلُّ ما سواه فهو مربوبٌ مصنوعٌ مفطورٌ ، فقيرٌ محتاجٌ معبَّد مقهورٌ ، وهو سبحانَه الواحدُ القَهّارُ الخالقُ البارِئُ المصوّرُ .

وهو وإِنْ كان قد خَلَقَ ما خَلَقَهُ بأسبابٍ ؛ فهو خالِقُ السّببِ

(١) كما في سورة النمل : آية ٤٤ ، حكايةً عنها .

والمُقَدِّرُ له ، وهو مفتقِرٌ إليه كافتقارِ هذا ، وليس في المخلوقاتِ سببٌ مستَقِلٌّ بِفِعْل خير ولا دَفْعِ ضَررٍ ، بل كلُّ ما هو سببٌ فهو محتاجٌ إلى سببٍ آخرَ يعاونُهُ ، وإلى ما يدفَعُ عنه الضّدَّ الذي يعارِضُهُ ويمانِعُه .

وهو سبُحانه وحده الغنِيُّ عن كلِّ ما سواه ، ليس له شريكٌ يُعاوِنُهُ ولا ضِدٌّ يناوِئُه ويعارِضُهُ .

قال تعالى : ﴿ **قُلْ أَفرأيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دونِ اللَّهِ إِنْ أرادانِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أرادانِي برحمْةٍ هل هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عليه يتوَكَّلُ المتوَكِّلون** ﴾ [الزُّمَر : ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ **وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كاشِفَ له إلّا هُو وإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ** ﴾ [الأنعام : ١٧] .

وقال تعالى عن الخليل : ﴿ **يا قَوْمِ إِنّي بريءٌ مما تُشْرِكونَ إنّي وَجَّهْتُ وجْهيَ للذي فطرَ السّماوات والأَرْضَ حنيفًا وما أنا مِنَ المشركين * وحاجَّهُ قومُهُ قال أَتحاجُّونّي في اللَّهِ وقد هَدَانِ ولا أخافُ ما تُشرِكونَ به إلا أنْ يشاءَ رَبِّي شيئًا** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **الذين آمنُوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بظُلْمٍ أولئك لهم الأَمْنُ وهم مُهْتَدون** ﴾ [الأنعام : ٧٨ - ٨٢] .

وفي « الصّحيحين » [(١)] عن عبد اللَّه بنِ مسعودِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ هذه الآيَةَ لما نَزَلتْ شَقَّ ذلك على أَصحابِ النبيِّ ﷺ وقالوا : يا رسوله اللَّهِ ! أيّنا لم يَلْبِسْ إيمانَهُ بظُلْمٍ ؟ فقال : « **إنّما هو الشِّرْكُ ، ألم تَسْمعُوا إِلى قولِ العبدِ الصّالح** : ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لظلمٌ عظيمٌ** ﴾ [لُقْمان : ١٣] » .

(١) رواه البخاري (١ / ٨١) ومسلم (١٢٤) وأحمد (٣٥٨٩) والترمذي (٣٠٦٩) وابن جرير (١٣٤٧٦) عن ابن مسعود .

وإِبراهيمُ الخليلُ إِمامُ الحنفاءِ المخلصين ، حيثُ بُعِثَ وقد طَبَّقَ الأَرْضَ دينُ المشركين .

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ **وإِذِ ابتلى إبراهيمَ ربُّهُ بكلماتٍ فأَتَمَّهُنَّ قال إِنّي جاعِلُك للنّاسِ إِمامًا قال ومِنْ ذُرِّيتي قال لا ينالُ عَهْدِي الظّالمين** ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

فبَيَّنَ أَنَّ عَهْدَهُ بالإمامةِ لا يتناولُ الظّالِمَ ، فلم يَأْمُرِ اللَّهُ سبحانه أَنْ يكون الظّالِمُ إِمامًا ، وأَعْظَمُ الظّلمِ الشّرك .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ إبراهيم كانَ أُمَّةً قانِتًا للَّهِ حنيفًا ولم يَكُ مِنَ المشركين** ﴾ [النحل : ١٢٠] .

والأُمَّةُ هو : مُعَلِّمُ الخيرِ الذي يُؤْتَمُّ به [١] ، كما أَنَّ القدوةَ : الذي يُقْتَدى به .

واللَّهُ تعالى جعلَ في ذُرِيَّتِهِ النبوّةَ والكتابَ ، وإِنّما بعثَ الأنبياءَ بعده بملّتِهِ .

قال تعالى : ﴿ **ثم أَوْحينا إِليك أَنِ اتبعْ مِلَّةَ إِبراهيمَ حنيفًا وما كان مِنَ المشرِكين** ﴾ [النحل : ١٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ أَوْلى النّاسِ بإِبراهيمَ لَلَّذين اتّبَعُوهُ وهذا النبيُّ والذين آمنوا واللَّهُ وليُّ المؤمنين** ﴾ [آل عمران : ٦٨] .

وقال تعالى : ﴿ **ما كان إِبراهيمُ يهودِيًّا ولا نصرانِيًّا ولكنْ كانَ حنيفًا مُسْلِمًا وما كان مِنَ المشركين** ﴾ [آل عمران : ٦٧] .

---

(١) انظر « التّذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار » (ص ٢٣) لابن شيخ الحزّامين ، وتعليقي عليه .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا كُونوا هُودًا أو نَصارى تَهْتَدُوا قل بل مِلَّةَ إبراهيمَ حنيفًا وما كان مِنَ المشرِكين * قولوا آمنّا باللَّهِ وما أُنزل إلينا وما أُنْزِلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباط ﴾ إلى قوله : ﴿ ونحنُ له مُسْلِمون ﴾ [البقرة : ١٣٥ - ١٣٦] .

وقد ثبتَ في « الصّحيح » (١) عن النبيِّ ﷺ أَنَّ إبراهيمَ خيرُ البَرِيَّةِ . فهو أَفْضَلُ الأنبياءِ بعد النبيِّ ﷺ ، وهو خليلُ اللَّهِ تعالى .

وقد ثبتَ في « الصّحيح » (٢) عن النبيِّ ﷺ مِنْ غيرِ وَجْهٍ أَنَّه قال : « إِنَّ اللَّهَ اتّخذني خليلًا كما اتَّخَذَ إبراهيمَ خليلًا » .

وقال : « لو كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرضِ خَليلًا لاتّخذْتُ أبا بكر خَليلًا ، ولكِنَّ صاحِبَكم خليلُ اللَّهِ » (٣) .

يعني : نفسَه .

وقال : « لا يبقَيَنَّ في المسجدِ خَوْخَةٌ إلا سُدَّتْ إلا خوخةَ أَبي بكرٍ » (٤) .

وقال : « إِنَّ مَنْ كان قبلكم كانوا يَتَّخِذون القبورَ مساجدَ ، أَلا فلا تتَّخِذُوا القُبور مساجدَ ؛ فإنّي أَنهاكم عن ذلك » (٥) .

---

(١) رواه مسلم (٢٣٦٩) وأبو داود (٤٦٧٢) والترمذي (٣٣٥٢) والنسائي في « الكبرى » كما في « تحفة الأشراف » (١ / ٤٠٣) .

(٢) رواه مسلم (٥٣٢) عن جُندب .
وفي الباب عن عدَّة من الصحابة ، فانظر « جامع الأصول » (٨ / ٥٨٤ - ٥٩٠) .

(٣) رواه البخاري (١٠ / ١٠) ومسلم (٢٣٨٢) والترمذي (٣٦٦١) عن أبي سعيد الخُدريِّ .

(٤) قطعة من الحديث السابق نفسِه .
والخوخة : مَنْفذٌ يكون بين منزلين يُجعل عليه بابٌ .

(٥) رواه مسلم (٥٣٢) وأبو عَوَانة (١ / ٤٠١) والطبراني في « الكبير » (١٦٨٦) وابن سعد (٢/ ٢٤٠) عن جندب بن عبد اللَّه .

وكلُّ هذا في « الصّحيح » .

وفيه : [١] أنَّه قال ذلك قبل موتِهِ بأيام ، وذلك مِنْ تمامِ رِسالَتِهِ ، فإنَّ في ذلك تمامَ تحقيقِ مخالَّتِهِ للَّهِ التي أَصْلُها مَحَبَّةُ اللَّهِ تعالى للعَبْدِ ، ومَحبَّةُ العَبْدِ للَّهِ ؛ خِلافًا للجَهْمِيَّةِ [٢] .

وفي ذلك تحقيقُ توحيدِ اللَّهِ ، وأَنْ لا يَعْبُدوا إلّا إيّاه ، وَرَدٌّ على أشباه المشركين .

وفيه ردٌّ على الرافضةِ الذين يَبْخَسُون الصدّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حقّه ، وهم أعظمُ المنتسِبين إلى القِبْلَةِ إشْراكًا بعبادةِ عليٍّ وغيرِهِ مِنَ البشَرِ [٣] .

والخُلَّةُ : وهي كمالُ المحبّةِ المستلزِمَةِ مِنَ العبدِ كمالَ العبودِيّةِ للَّهِ ، ومِنَ الربِّ سبحانه كمالَ الربوبيّةِ لعبادِهِ الذين يُحِبُّهم ويُحِبُّونَه .

ولفظُ « العبودِيّةِ » يتضَمَّنُ كمالَ الذُّلِّ وكمالَ الحُبِّ ، فإنَّهم يقولون : « قَلْبٌ مُتَيَّمٌ » إذا كانَ مُتَعَبِّدًا للمحبوبِ .

و « المتيَّمُ » : المتعبَّد .

و « تَيَّمَ اللَّهَ » : عَبَدَهُ ، وهذا على الكمالِ حَصَلَ لإبراهيمَ ومحمّدٍ صلى اللَّه عليهما وسلم .

ولهذا لم يَكنْ لَه ﷺ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خليلٌ ، إِذ الخُلَّةُ لا تَحْتَمِل الشّركَةَ ، فإنّه كما قيلَ في المعنى :

قد تَخلَّلْتَ مَسْلَكَ الرّوحِ مِنّي ... وَبذا سُمّيَ الخَليلُ خليلا

---

(١) أي في الحديث نفسِه : « قبل أن يموتَ بخمسٍ ... » .

(٢) انظر « درء تعارض العقل والنقل » (٦ / ٥٩ - ٦٣) للمصنّف رحمه اللَّه .

(٣) وقد فصّل المصنّفُ رحمه اللَّه في نقض آرائهم ، وتكذيب اعتقاداتهم في كتابِه العُجاب « منهاج السنة النبويّة » ، وقد طُبع - قبل سَنَواتٍ - طبعةً محققةً في تسع مجلّدات .

بخلافِ أَصْلِ الحبِّ ؛ فإنه ﷺ قد قالَ في الحديثِ الصّحيح [١] في الحَسَنِ وأُسامةَ : « **اللَّهمَّ ! إنّي أُحِبُّهما فأَحِبَّهما، وأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهما** » .

وسأله عَمْرو بنُ العاصِ : أَيُّ النّاسِ أَحَبُّ إِليك ؟

قال « **عائشةُ** » .

قال : فَمِنَ الرّجال ؟

قال : « **أبوها** » [٢] .

---

(١) رواه البخاري (٣٧٣٥) و (٣٧٤٧) وأحمد في « المسند » (٥ / ٢١٠) وفي « فضائل الصحابة » (١٣٥٢) .
والنسائي في « فضائل الصحابة » (رقم : ٨٠) وابن سعد (٤ / ٦٢) والبَغَوي في « شرح السنة » (١٤ / ١٤٣) وأبو القاسم البَغَوي في « مسند زيد » (رقم : ٨) عن أسامة بن زَيْد .
وليس في الرواية : « **وَأَحِبَّ مَن يحبُّهما** » .
وهي روايةٌ في الحَسَن والحُسَين عند الترمذي في « سننه » (٣٧٦٩) والنَّسائي في « الخصائص » (١٣٦) وابن حبان (٢٢٣٤) وابن أبي شيبة في « المصنف » (١٢ / ٩٧) والبخاري في « التاريخ الكبير » (٢ / ٢٨٦) والمِزيّ في « تهذيب الكمال » (٦ / ٥٥) مِن طريق موسى بن يعقوبَ الزَّمعي ، عن عبد اللّه بن أبي بكر بن زيد ، عن مسلم بن أبي سهل ، عن حسن بن أُسامة ، عن أبيه .
قال ابنُ المديني في هذا الحديث :
حديثُ الحَسَن بن أُسامة حديثٌ مدينيٌّ رواه شيخٌ ضَعيفٌ مُنْكَرُ الحديث يُقال له : موسى بن يعقوب ، من وَلَد عبد اللّه بن زَمْعَة ، عن رجل مجهولٍ ، عن آخر مجهول .
نَقَله ابنُ عساكر في « تاريخه » (٤ / ١٥٥ - تهذيبه) .
وضعّفه الذهبي في « السِّيَر » (٣ / ٢٥٢) ثمَّ قال : « **فهذا مِمّا يُنْتقَدُ تحسينهُ على الترمذي** » .
وعزاه أَخونا الحُويني في « الحُلِيّ ... » (ص ١٢٣) للحاكم ! ولم أَره في « مستدركه » !!
ولقولِه : « **اللّهم ! إني أحبّهما فأحبَّهما** » شاهدٌ .
أخرجه أحمد في « المسند » (٢ / ٤٤٦) وفي « الفضائل » (١٣٧١) وابن أبي شيبة في « المصنف » (١٢ / ٩٥) والبزّار (٣ / ٢٢٦) مِن طريقين عن أبي هريرة ، وسنده حَسَنٌ .

(٢) رواه البخاري (٣٦٦٢) ومسلم (٢٣٨٤) والترمذي (٣٨٧٩) والنَّسائي في « فضائل الصحابة » (رقم : ٥) وأحمد (٤ / ٢٠٣) من طُرُق عن عَمْرو بن العاص .

وقال لعليٍّ [١] رضِيَ اللَّهُ عنه : « **لأُعطِيَنَّ الرّايةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ ورسولَه ، ويُحِبُّه اللَّهُ ورسولُهُ** » [٢] .

وأمثالُ ذلك كثيرٌ .

وقد أخبر تعالى أَنّه : ﴿ **يُحِبُّ المتَّقين** ﴾ [آل عمران : ٧٦] ، و ﴿ **يُحِبُّ المحْسِنين** ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، و ﴿ **يُحِبُّ المُقْسِطين** ﴾ [الحجرات: ٩] ، و﴿ **يُحِبُّ التَّوَّابين ويُحِبُّ المُتَطَهِّرينَ** ﴾[البقرة : ٢٢٢] ، و ﴿ **يُحِبُّ الذين يُقاتِلون في سَبيله صَفًّا كأَنَّهم بُنيانٌ مَرْصُوصٌ** ﴾ [الصّف : ٤] .

وقال : ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتي اللَّه بِقومٍ يُحِبُّهم ويُحِبُّونه** ﴾ [المائدة : ٥٤] .

فقد أخبر بمحَبَّتِهِ لعبادِه المؤمنين وَمَحَبَّةِ المؤمنين له ، حتى قال : ﴿ **والذين آمنوا أَشَدُّ حُبًّا للَّهِ** ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

أما الخُلَّةُ فخاصّةٌ ، وقولُ بعضِ النّاسِ : إنَّ محمدًا حبيبُ اللَّهِ وإبراهيمَ خليلُ اللَّهِ وظَنُّه أَنَّ المحبَّةَ فوق الخُلَّةِ : قولٌ ضعيفٌ ، فإنَّ مُحمّدًا أيضًا خليلُ اللَّهِ ، كما ثبتَ ذلك في الأحاديثِ الصّحيحةِ المستفيضةِ [٣] .

وما يُروى أَنَّ العبَّاسَ يُحْشَرُ بينَ حبيبٍ وخَليلٍ [٤] ، وأمثالُ ذلك ؛

---

(١) كذا ، فلعلّه أراد : « في عليٍّ » فكتبها « لعليٍّ » !

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٩) و (٣٧٠١) و (٤٢١٠) و (٢٤٠٦) وأحمد في « مسنده » (٥ / ٣٣٣) وفي « الفضائل » (١٠٣٧) والنَّسائي في « الكبرى » (٤٦ - فضائل الصحابة) ، والبغوي (٣٩٠٦) والطبراني في « الكبير » (٥٨٧٦) و (٥٩٥٠) و (٥٩٩١) عن سَهْل بن سَعْد . وفي الباب عن عدَّة من الصحابة .

(٣) سبق بعضُها .

(٤) لعلّه يُشير إلى ما يُروى مرفوعًا : « ... **والعبّاس بيننا مؤمنٌ بين خليلَيْن** » .

رواه ابن ماجه (١٤١) والعقيلي (٣ / ٧٨) وابن الجوزي في « الموضوعات » (٢ / ٣٢) =

فأحاديثُ موضوعةٌ لا تَصْلُحُ أَنْ يُعتَمَدَ عليها .

وقد قَدَّمْنا أَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ تعالى هي : مَحَبَّتُهُ ومَحَبَّةُ ما أَحَبَّ ، كما في « الصّحيحين » (١) عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « **ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمانِ : مَنْ كانَ اللَّهُ ورسولُهُ أَحَبَّ إِليه مِمّا سواهما ، ومَنْ كانَ يُحِبُّ المرءَ لا يُحِبُّه إلا للَّهِ ، ومَنْ كان يكرهُ أَنْ يرجِعَ في الكُفْرِ بعد إِذ أَنْقَذه اللَّهُ منه كما يَكْرَهُ أَنْ يُلْقى في النّارِ** » :

أخبر النبيُّ ﷺ أَنَّ مَنْ كان فيه هذه الثلاث ؛ وجدَ حلاوةَ الإيمانِ ؛ لأنَّ وَجْدَ الحلاوةِ بالشَّيءِ يتبَعُ المحَبَّةَ له ، فَمَنْ أَحَبَّ شيئًا أَو اشتهاه ؛ إذا حَصَلَ له مرادُهُ ؛ فإنّه يَجِدُ الحلاوةَ واللّذةَ والسّرورَ بذلك ، واللّذّةُ أَمْرٌ يحصُلُ عقيبَ إدراكِ الملائِم الذي هو المحبوبُ أو المُشتَهى .

ومَنْ قال : إنَّ اللذةَ إدراكُ الملائمِ - كما يقولُه مَنْ يقولُه مِنَ المتفلسِفَةِ والأطِبّاء (٢) - فقد غَلِطَ في ذلك غَلَطًا بيِّنًا ؛ فإنَّ الإدراكَ

= عن ابن عَمْرو .

وقال البوصيري في « مصباح الزجاجة » (رقم : ٥١) : « هذا إسنادٌ ضعيفٌ ؛ لاتِّفاقهم على ضَعْف عبد الوهاب [بن الضحاك] ، بل قال فيه أبو داود : يضعُ الحديثَ ، وقال الحاكم : روى أحاديثَ موضوعة ، وشيخهُ إسماعيلُ يدلِّسُ » .

قلتُ :

فمثلُه حديثُهُ موضوعٌ كما جزم ابنُ الجوزي . أما تعقُّب السيوطيِّ له في « اللآلئ » (١ / ٤٣٠) بأنَّه « أخرجه ابن ماجه » !

فمِمّا يكفي في ردِّه حكايتُه !!

(١) تقدّم تخريجه (ص ٤٨) .

(٢) انظر « درء تعارض العقل والنقل » (٦ / ٦٩ - ٧٥) للمصنِّف ، ففيه زيادة تفصيلٍ .

يتوَسَّطُ بينَ المحَبَّةِ واللذّةِ ، فإنَّ الإنسانَ مثلًا يشتَهِي الطّعامَ ، فإذا أَكَلَهُ حَصَلَ له عقيبَ ذلك اللّذةُ ، فاللذَّةُ تتبَعُ النَّظَرَ إِلى الشّيءِ ، فإذا نظَرَ إليه الْتَذَّ به ، فاللذَّةُ تَتْبَعُ النّظرَ ليست نَفْسَ النّظرِ ، وليست هي رُؤْيَةَ الشيءِ ، بل تَحْصلُ عقيبَ رُؤْيتِهِ .

وقال تعالى : ﴿ وفيها ما تَشْتَهيهِ الأنْفسُ وتَلَذُّ الأعْيُنُ ﴾ [الزخرف : ٧١] .

وهكذا جميعُ ما يَحصلُ للنّفسِ مِنَ اللذّاتِ والآلامِ ؛ مِنْ فَرَحٍ ، وَحُزْنٍ ، ونحوِ ذلك - يَحْصلُ بالشّعورِ بالمحبوبِ ؛ أو الشّعورِ بالمكروهِ ، وليس نَفْسُ الشّعورِ هو الفرحَ ولا الحزنَ .

فحلاوةُ الإيمانِ المتضمّنةُ مِنَ اللذّةِ به والفَرح ما يَجِدُهُ المؤمنُ الواجِدُ من حلاوةِ الإيمان تَتبَعُ كمالَ محبَّةِ العبدِ للّهِ ، وذلك بثلاثةِ أُمورٍ : تَكْميلِ هذه المحبّةِ ، وتفْريعِها ، ودَفْعِ ضِدّها .

فتكميلُها :

أنْ يكونَ اللَّهُ ورسولُهُ أَحَبَّ إليه مِمّا سواهما ، فإنَّ مَحبَّةَ اللَّهِ ورسولِهِ لا يُكْتَفَى فيها بأَصْلِ الحُبِّ ، بل لابُدَّ أَنْ يكونَ اللَّهُ ورسولُهُ أَحَبَّ إليه مِمّا سواهما كما تَقَدَّمَ .

وتفريعُها :

أَنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبّهُ إلا للَّهِ .

ودَفْعُ ضِدّها :

أَنْ يكرهَ ضِدَّ الإيمانِ أعظمَ مِنْ كَراهَتِه الإلقاءَ في النّارِ .

فإذا كانَتْ مَحبَّةُ الرّسولِ والمؤمنين مِنْ مَحبَّةِ اللَّهِ ، وكان رسولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ المؤمنين الذين يُحِبُّهم اللَّهُ ؛ لأَنَّه أكملُ النّاسِ مَحبَّةً للَّهِ ، وأَحقُّهم بأَنْ يُحِبَّ ما يُحِبُّ اللَّهُ ، ويُبْغِضَ ما يُبْغِضُهُ اللَّهُ .

والخُلَّةُ ليس لغيرِ اللَّهِ فيها نصيبٌ ، بل قال : « **لو كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خليلًا لاتَّخَذْتُ أبا بكرٍ خليلًا** » (١) ، عُلِمَ [مِنْهُ] مزيدُ مَرْتبةِ الخُلَّةِ على مُطْلَقِ المحبَّةِ .

والمقصودُ : هو أَنَّ الخُلَّةَ والمحبَّةَ للَّهِ تحقيقُ عبودِيَّتِهِ .

وإنما يغلَطُ مَنْ في هذه مِنْ حيثُ يتوهَّمون أَنَّ العبودِيَّةَ مُجرَّدُ ذلٍّ وخُضوعٍ فقط لا مَحبَّةَ معه ، أَوْ أَنَّ المحبَّةَ فيها انبساطٌ في الأهواءِ أو إِدْلالٌ لا تحتَمِلُهُ الربوبيَّةُ ، ولهذا يُذْكَرُ عن ذي النُّون (٢) أَنَّهم تَكلَّمُوا عنده في مسأَلَة المحبَّةِ ، فقال : أَمْسِكُوا عن هذه المسأَلَةِ لا تسمَعُها النُّفوسُ فتدَّعِيها (٣) .

وَكَرِهَ مَنْ كَرِهَ مِنْ أَهْلِ المعرفةِ والعِلْمِ مجالسةَ أقوامٍ يُكْثِرونَ الكلامَ في المحبَّةِ بلا خَشْيةٍ (٤) .

وقال مَنْ قال مِنَ السّلف : مَنْ عبدَ اللَّهَ بالحبِّ وحدَه فهو

---

(١) تقدَّم تخريجُهُ (ص ٩٣) .

(٢) هو ثوبان بن إبراهيم ، مشهورٌ بالزُّهد ، توفي سنة (٢٤٥ هـ) ترجمته في « تاريخ بغداد » (٨ / ٣٩٣) .

(٣) انظر ترجَمته في « حلية الأولياء » (٩ / ٣٣١ - فما بعد) فقد ساق جملة وافرة من أقوالِهِ وأخبارِه .

(٤) وفي هذا الكلامِ تنبيهٌ على ما يقعُ فيه كثيرٌ من الشباب المسلمِ اغترارًا ببعضِ أهل البدع لحُسن أساليبهم ، وطلاوة عباراتهم ، ولين جانبِهم مِمّا يُوقِعُهم في الافتنان بهم ، والوقوع في شَرَكهم !! فالحذَرَ الحذَرَ ، وليكن المِقياس : العقيدة والمنهج .

زنديقٌ ، ومَنْ عبدَه بالرّجاءِ وحده فهو مرجئٌ [١] ، ومن عبدَه بالخَوْفِ وَحْدَه فهو حروريٌّ [٢] ، ومَنْ عبدَه بالحبِّ والخوفِ والرّجاءِ فهو مُؤْمِنٌ موحِّدٌ [٣] .

ولهذا وُجِدَ في المستأْخِرين مَنِ انبسَطَ في دَعوى المحبَّةِ ؛ حتى أَخْرَجَه ذلك إلى نوعٍ مِنَ الرُّعونةِ والدّعوى التي تُنافي العبودِيَّةَ ، وتُدْخِلُ العَبْدَ في نَوْعٍ من الربوبيّةِ التي لا تَصْلُحُ إلا للّهِ ، ويدَّعي أحدُهم دعَاوَى تتجاوَزُ حدودَ الأَنبياءِ والمرسلين ، أو يطلبُون مِنَ اللّهِ ما لا يَصْلُحُ بكُلِّ وجهٍ إلّا للّهِ ؛ ولا يصلُح للأنبياءِ .

وهذا بابٌ وقَعَ فيه كثيرٌ مِنَ الشّيوخِ ؛ وسببُهُ ضُعْفُ تحقيقِ العبوديّةِ التي بيَّنها الرّسلُ ، وحَرَّرها الأمرُ والنَّهْيُ الذي جاؤوا به ؛ بل ضَعْفُ العَقْلِ الذي به يعْرِفُ العَبْدُ حقيقتَهُ .

وإذا ضَعُفَ العقلُ ، وقَلَّ العِلْمُ بالدِّينِ ، وفي النّفسِ مَحبَّةٌ طائِشَةٌ جاهِلَةٌ ، انبسطتِ النّفسُ بحُمْقِها في ذلك ؛ كما ينبسِطُ الإنسانُ في مَحبَّةِ الإنسانِ مع حُمْقِهِ وجَهْلِه ، ويقول : [أنا مُحِبٌّ ، فلا أُؤاخَذُ بما أفعلُهُ مِن أنواعٍ يكونُ فيها عُدوانٌ وجَهْلٌ !

فهذا عَيْنُ الضَّلالِ ، وهو شبيهٌ بقولِ اليهود والنَّصارى : ﴿ **نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ** ﴾ [المائدة : ١٨] .

قال اللّهُ تعالى : ﴿ **قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ**

---

(١) المُرْجِئة : هم الذين يعتقدون أنّه لا يضرُّ مع الإيمان ذنبٌ .

(٢) الحروريّة : فرقةٌ من الخوارج - تُنْسَبُ إلى (حَرُوراء) - لها اعتقادات باطلة ، منها تحكيم العقل على الشرع ! والخروج على جماعة المسلمين !!

(٣) انظر « التخويف من النار » (ص ١٥) للحافظ ابن رجب .

يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [المائدة : ١٨] .

فإِنَّ تعذيبَهُ لهم بِذُنُوبِهِم يَقْتضي أنَّهم غيرُ مَحْبوبين ولا مَنْسوبين إليه بنسبةِ البنوة ، بل يَقْتَضي أنَّهم مَرْبوبون مَخْلُوقونَ .

فمن كان اللَّهُ يُحِبُّه استعملَه فيما يُحِبُّه محبوبُهُ ، لا يفعلُ ما يُبْغِضُهُ الحقُّ ويُسْخِطُهُ مِنَ الكُفرِ والفسوقِ والعصيانِ .

ومن فعلَ الكبائرَ وأَصرَّ عليها ولم يَتُبْ منها ؛ فإِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ منه ذلك ؛ كما يُحِبُّ منه ما يفعلُهُ من الخير ؛ إِذْ حُبُّهُ للعبدِ بحسبِ إيمانِهِ وتقواه .

ومَنْ ظَنَّ أنَّ الذنوبَ لا تضرُّهُ لكونِ اللَّهِ يُحِبُّهُ - مع إصرارِهِ عليها - كان بمنزلةِ مَنْ زَعَمَ أنّ تناوُلَ السُّمِّ لا يَضُرُّهُ مع مُداومتِهِ عليه وعَدَم تداويهِ منه بصحّةِ مزاجِهِ .

ولو تَدَبَّر الأَحمقُ ما قصَّ اللَّهُ في كتابِهِ مِنْ قَصَص أنبيائِهِ ؛ وما جرى لهم من التوبة والاستغفارِ ؛ وما أُصيبوا به من أنواعِ البلاءِ الذي فيه تمحيصٌ لهم وتطهيرٌ بحسب أحوالهم ؛ عَلِمَ بعضَ ضررِ الذُّنوبِ بأصحابِها ، ولو كان أرفعَ الناسِ مقامًا ، فإنّ المُحِبَّ للمخلوق إذا لم يكن عارفًا بمصلحتِهِ ولا مُريدًا لها ؛ بل يعملُ بمقتضى الحُبِّ - وإنْ كان جهلًا وظُلْمًا - كان ذلك] [1] سَبَبًا لِبُغضِ المحبوبِ له ونُفورِهِ عنه بل سببًا لعقوبَتِهِ .

وكثيرٌ مِنَ السالكين سَلَكُوا في دَعْوى حُبِّ اللَّهِ أَنْواعًا مِنْ

(١) ما بين المعكوفين - ابتداءً من الصفحة السابقة - كلُّه ساقطٌ من مطبوعةِ المكتبِ الإِسلاميّ ! .

أُمور الجهلِ بالدِّين :

إمّا مِنْ تَعَدّي حدودِ اللّهِ ، وإمّا مِنْ تَضْييعِ حقوقِ اللّهِ .

وإمّا مِن ادِّعاءِ الدّعاوي الباطلةِ التي لا حقيقةَ لها ؛ كقولِ بَعْضِهِم : أيُّ مريدٍ لي تركَ في النّارِ أحدًا فأنا بريءٌ منه ! فقال الآخر : أيّ مريدٍ لي تركَ أحدًا مِنَ المؤمنين يدخلُ النّارَ فأنا منه بريءٌ !! .

فالأول : جعل مريدَه يُخرِجُ كلَّ مَنْ في النّارِ !! .

والثاني : جَعَلَ مريدَه يَمْنَعُ أَهْلَ الكبائرِ مِن دُخولِ النّارِ !! .

ويقول بعضُهم : إذا كانَ يومُ القيامةِ نَصَبْتُ خَيْمَتي على جَهَنَّمَ حتى لا يَدْخُلَها أَحدٌ !!

وأَمْثالُ ذلك منَ الأَقْوالِ التي تُؤْثَرُ عن بَعضِ المشايخ المشهورين ، وهي إمّا كَذِبٌ عليهم ، وإمّا غَلَطٌ منهم [(١)] .

ومثلُ هذا قد يَصْدُرُ في حالِ سُكْرٍ وغَلَبَةٍ وفَناءٍ [(٢)] ، يسقطُ فيها تمييزُ الإنسانِ ، أو يَضْعُفُ حتى لا يَدْرِي ما قال !

والسُّكْرُ : هو لذَّةٌ مع عَدَمِ تمييزٍ .

ولهذا كانَ مِنْ هؤلاءَ مَنْ إذا صَحا استغفرَ مِنْ ذلك الكلام .

---

(١) رَحِمَ اللّهُ شيخ الإسلام ابنَ تيميّة ما أعدله وما أشدَّ إنصافه !

ولو أنَّ خصومَه ومخالفيه - هداهم اللّه - فعلوا معه مثلَ ما فعله هو مَعَهم لعَرَفوا قَدْره ، وأعْطَوْه حقَّه .. ولكنْ ..

(٢) وهذا كلُّه من تلبيس إبليس ومصايد الشيطان الرجيم !!

والذين تَوَسَّعوا مِنَ الشيوخِ في سماعِ القصائدِ المتضَمِّنَةِ للحُبِّ والشّوْقِ واللّوْمِ والعذْلِ والغرامِ ، كان هذا أَصْلَ مَقْصدِهِم ، فإنَّ هذا الجنسَ يُحرّكُ ما في القلبِ مِنَ الحبِّ كائنًا ما كان ، ولهذا أنزلَ اللَّهُ مِحْنَةً يمتحِنُ بها المحِبَّ ، فقال : ﴿ **قل إِنْ كُنتُم تُحبّونَ اللَّهَ فاتّبعُوني يُحبِبْكم اللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٣١] ، فلا يكون مُحِبًّا للَّهِ ، إلا مَنْ يَتَّبعُ رسولَه .

وطاعةُ الرّسولِ ومتابَعَتُهُ لا تكونُ إلا بتحقيقِ العبوديّةِ ، وكثيرٌ مِمّنْ يدَّعي المحبَّةَ يخرُجُ عن شريعَتِهِ وسُنّتِهِ ﷺ ، ويدَّعي من الحالاتِ ما لا يَتَّسِعُ هذا الموضعُ لذِكْرِهِ [١] ، حتى قد يظُنُّ أحدُهم سقوطَ الأمْرِ وتَحْلِيلَ الحرامِ له ، وغيرَ ذلك مِمّا فيه مخالفةُ شريعةِ الرّسولِ وسنّتهِ وطاعَتِهِ !!

بل قد جعلَ اللَّهُ أَساسَ مَحَبَّتِه ومحبَّةِ رَسولِهِ الجهادَ في سبيلِهِ ، والجهادُ يتضَمَّنُ كمال مَحبَّةِ ما أَمَرَ اللَّهُ به ، وكمالَ بُغْضِ ما نَهى اللَّهُ عنه ، ولهذا قال في صِفَةِ مَنْ يُحِبُّهم ويُحِبُّونه : ﴿ **أَذِلَّةٍ على المؤمنين أعزَّةٍ على الكافرين يجاهِدُون في سبيلِ اللَّهِ ولا يخافون لومَةَ لائِم** ﴾ [المائدة : ٥٤] .

ولهذا كانتْ محبَّةُ هذه الأُمَّةِ للَّهِ أكملَ مِنْ مَحَبَّةِ مَنْ قبلَها ، وعُبودِيَّتُهُم للَّهِ أكملَ مِنْ عبودِيّةِ مَنْ قبلَهم .

وأكملُ هذه الأُمَّةِ في ذلك هم أصحابُ محمدٍ ﷺ ، ومَنْ كان

---

(١) ككثيرٍ من دُعاة التصوُّف وأدعياءِ الكرامة في كُلِّ العصور .

بهم أشبهَ كان ذلك فيه أكملَ [١] ، فأَيْنَ هذا مِنْ قومٍ يَدَّعُونَ المحبَّةَ ؟ .

وفي كلامِ بعضِ الشُّيوخِ : « المحبّةُ نارٌ تَحْرِقُ في القلبِ ما سوى مُرادِ المحبوبِ » ! .

وأرادوا أَنَّ الكونَ كُلَّه قد أَرادَ اللَّه وجودَه ، فظَنُّوا أَنَّ كمالَ المحبّةِ أَنْ يُحِبَّ العبدُ كلَّ شيءٍ ، حتى الكُفْرَ والفسوقَ والعِصْيانَ !! ولا يمكِنُ أحدٌ أنْ يُحِبَّ كلَّ موجودٍ ، بل يُحِبُّ ما يلائِمُهُ وينفَعُهُ ، ويبغِضُ ما ينافيهِ ويضرُّه ، ولكِنِ استفادُوا بهذا الضّلالِ اتّباعَ أَهْوائِهم ، ثمَّ زادَهم انغماسًا في أهوائِهم وشَهواتهم ، فهم يُحِبُّونَ ما يَهْوونَهُ ، كالصُّورِ ، والرئاسةِ ، وفُضولِ المالِ ، والبدَعِ المضلَّةِ ، زاعِمينَ أَنَّ هذا مِنْ مَحبَّةِ اللَّهِ ! .

ومِنْ مَحبَّةِ اللَّهِ بُغْضُ ما يُبْغِضهُ اللَّهُ ورسولُهُ ، وجهادُ أَهْلِهِ بالنَّفْسِ والمالِ .

وَأَصْلُ ضلالِهم : أَنَّ هذا القائلَ الذي قال : « إِنَّ المحبَّةَ نارٌ تحرِقُ ما سوى مُرادِ المحبوبِ » ، قَصَدَ بمرادِ اللَّهِ تعالى : الإرادةَ الكونيّةَ في كُلِّ الموجوداتِ .

أَمّا لو قال مؤمنٌ باللَّهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ هذه المقالةَ ، فإنّه يَقْصِدُ الإرادةَ الدينيّةَ الشرعيّةَ التي هي بمعنى مَحبَّتِهِ ورِضاه ، فكأنَّه قال : تَحْرِقُ مِنَ القَلْبِ ما سِوى المحبوبِ للَّهِ .

---

(١) لذلك نحن ننتسبُ إليهم ، ونقتدي بهم ، ونهتدي بهديهم ، رضي اللَّه عنهم ، وألحَقَنا بهم على خيرٍ .

وهذا معنىً صحيحٌ ، فإِنَّ مِنْ تمامِ الحُبِّ للَّهِ أَنْ لا تُحِبَّ إِلّا ما يُحِبُّهُ اللَّهُ ، فإذا أَحْبَبْتَ ما لا يُحِبُّ ؛ كانت المحبَّةُ ناقصةً .

وأمّا قضاؤُه وقَدَرُهُ فهو يُبْغِضُهُ ويكرَهُهُ ويُسْخِطُهُ وينْهى عنه ، فإِن لَمْ أُوافِقْهُ في بُغْضِهِ وكَرَاهتِهِ وسَخَطِهِ ، لم أَكُنْ مُحِبًّا له ، بل مُحِبًّا لما يُبْغِضُهُ .

فاتِّباع هذه الشّريعة والقيامُ بالجهادِ بها مِنْ أَعْظَمِ الفروقِ بين أَهْلِ محبةِ اللَّهِ وأوليائِهِ الذين يُحِبُّهم ويُحِبُّونه ، وبَيْنَ مَنْ يدَّعِي مَحبَّةَ اللَّهِ ناظرًا إِلى عُمومِ ربوبيّتِهِ ، أو مُتَّبِعًا لبَعْضِ البدَعِ المخالفةِ لشريعَتِه ؛ فإِنَّ دَعْوى هذه المحبّةِ للَّهِ مِنْ جنْسِ دَعْوى اليهود والنّصارى المَحَبَّةَ للَّهِ ، بل قد تكونُ دَعوى هؤلاءِ شرًّا مِنْ دعوى اليهودِ والنّصارى ، لما فيهم مِن النِّفاقِ الذين هم بِهِ في الدَّرْكِ الأَسفلِ من النَّارِ ، كما قد تكونُ دعوى اليهودِ والنّصارى شَرًّا مِنْ دَعْواهم إِذا لم يَصِلُوا إِلى مِثْلِ كُفْرهم .

وفي التّوراةِ والإنجيلِ مِنَ التّرغيبِ في مَحبّةِ اللَّهِ ما هُم مُتَّفِقُون عليه ، حتى إِنَّ ذلك عندهم أعظمُ وصايا النّاموس .

ففي الإنجيلِ أَنَّ المسيحَ قال : « أعظمُ وصايا المسيحِ أَنْ تُحِبَّ اللَّهَ بكلِّ قَلْبِكَ وعَقْلِكَ ونَفْسِك » .

والنّصارى يَدَّعون قيامَهم بهذه المحبَّةِ ، وأَنَّ ما هم فيه مِنَ الزُّهدِ والعبادةِ هو من ذلك ، وهم بُرآءُ مِنْ مَحبَّةِ اللَّهِ ، إِذ لم يَتبعُوا ما أَحبَّهُ ، بل ﴿ **اتَّبعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّه وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ فأَحْبَطَ أعْمالَهم** ﴾ [محمد : ٢٨] .

واللَّهُ يبغِضُ الكافرين ويمقُتهم ويَلْعَنُهم ، وهو سبحانه يُحِبُّ مَنْ

يُحِبُّهُ ، لا يمكِنُ أَنْ يكونَ العبدُ مُحِبًّا للَّهِ ، واللَّهُ تعالى غيرُ مُحِبٍّ له ، بلْ بِقَدْرِ محبّةِ العبدِ لربِّهِ يكونُ حُبُّ اللَّهِ له ، وإن كانَ جزاء اللَّهِ لعبدِهِ أعظمَ ، كما في الحديثِ الصّحيح [١] الإلهِيّ عن اللَّهِ تعالى أنه قال : « **مَنْ تقرَّبَ إلِيّ شِبْرًا تَقرَّبْتُ إليه ذِراعًا ، ومَنْ تَقرَّبَ إِلِيَّ ذِراعًا تقرَّبْتُ إليه باعًا ، ومَنْ أتَاني يَمْشي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً** » .

وقد أخبرَ اللَّهُ سبحانه أنّه يُحِبُّ المتَّقين والمحسِنين ، والصّابرين ، ويُحِبّ التّوابين ، ويُحِبُّ المُتطهّرين [٢] ، بل هو يُحِبُّ مَنْ فعل مَا أمرَ به مِنْ واجبٍ ومستَحَبٍّ ، كما في الحديثِ [الإلهِيّ] الصّحيح [٣] :

« **لا يزالُ عَبْدِي يتقرَّبُ إليَّ بالنّوافلِ حتى أُحِبّه ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَه الذي يَسْمَعُ به وبَصَرَه الذي يُبصِرُ به** .... » الحديث .

وكثيرٌ مِنَ المخطِئين الذين ابتَدَعوا أَشْيَاءَ في الزّهدِ والعبادةِ وَقَعوا في بَعْضِ ما وقَع فيه النَّصارى مِنْ دعوى المحبّةِ للَّهِ مع مخالفةِ شَريعَتِهِ ، وتَرْكِ المجاهدَةِ في سبيلِهِ ، ونَحْو ذلك ، ويتَمَسَّكُونَ في الدّينِ الذي يتقَرَّبون به إِلى اللَّهِ بِنَحْوِ ما تَمَسَّكَ به النّصاري من الكلامِ المتشابهِ ، والحكاياتِ التي لا يُعْرَفُ صِدْقُ قائِلِها ، ولو صدقَ لم يكُنْ قائِلُها مَعْصومًا [٤] ، فيجعلونَ مَتبوعيهم شارِعين لهم دِينًا ، كما جَعَلَ

---

(١) رواه البخاري (١٣ / ٣٢٥) ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة ، ورواه البخاري (١٣ / ٤٢٧) عن أنس ، ورواه مسلم (٢٦٨٧) عن أبي ذرٍّ .

(٢) تقدّم نَحْوٌ مِن ذلك (ص ٩٥ ، ٩٦) .

(٣) حديث صحيحٌ ، له طرقٌ عدّةٌ لا تخلو مُفرداتُهُ مِن ضَعْفٍ .
وقد فَصَّلَ القولَ في هذا الحديثِ تفصيلًا رائعًا شيخُنا الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٤ / ١٨٣ - ١٩٣) فَلْيراجع .

(٤) كَمِثْلِ ما تفعلُه اليومَ بعضُ الجماعاتِ الإسلامية الدَّعَويّة - وللأَسَفِ - مع قادتِها وأُمرائِها !! .

النَّصارى قِسّيسيهم ورُهبانَهم شارِعين لهم دينًا ، ثمَّ إِنّهم يَنْتَقِصُون العبودِيّةَ ، ويَدَّعونَ أَنَّ الخاصّةَ يتعدَّوْنَها ، كما يدَّعي النّصارى في المسيحِ والقساوسةِ ، ويُثْبِتُون لخاصَّتِهِم مِنَ المشاركةِ في اللَّهِ مِنْ جِنْسِ ما تُثْبِتُهُ النّصارى في المسيحِ وأُمِّه ... إِلى أنواعٍ أُخَرَ يطولُ شَرْحُها في هذا الموضع .

وإِنّما الدّينُ الحقُّ هو تحقيقُ العبودِيّةِ للَّهِ بكلِّ وَجْهٍ ، وهو تحقيقُ مَحبَّةِ اللَّهِ بكلِّ درجةٍ ، وبِقَدْرِ تكميلِ العبودِيّةِ تَكمُلُ مَحبَّةُ العبدِ لِرَبِّه ، وتَكْمُلُ مَحبَّةُ الربِّ لعبدِه ، وبِقَدْرِ نَقْصِ هذا يكونُ نَقْصُ هذا ، وكلّما كانَ في القلبِ حُبٌّ لغيرِ اللَّهِ كانت فيه عبوديةٌ لغيرِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذلك ، وكلّما كانَ فيه عبوديّةٌ لغيرِ اللَّهِ كان فيه حُبٌّ لغيرِ اللَّهِ بحَسَبِ ذلك .

وكلُّ محبَّةٍ لا تكونُ للَّهِ فهي باطِلةٌ ، وكلُّ عملٍ لا يُرادُ به وَجْهُ اللَّهِ فهو باطلٌ ، فالدّنيا ملعونةٌ ، ملعونٌ ما فيها إِلا ما كانَ للَّهِ [1] ، ولا يكونُ للَّهِ إِلّا ما أَحَبَّهُ اللَّهُ ورسولُهُ ، وهو المشروعُ .

فكلُّ عملٍ أُريدَ به غيرُ اللَّهِ لم يَكُنْ للَّهِ ، وكلُّ عملٍ لا يُوافق

---

(١) وقد صحّ هذا المعنى مرفوعًا عن النبيِّ ﷺ :
رواه الترمذي (٢٣٢٣) وابن ماجه (٤١١٢) وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١٣٣٠) والبغوي (٤٠٢٨) والعقيلي في « الضعفاء » عن أبي هريرة .
وسندُه حَسَنٌ ، ابن ضمرة روى عنه جماعةٌ ووثّقه العجلي وابن حِبّان .
ونَقَل الدكتور بشّار عواد في تعليقهِ على « تهذيب الكمال » (١٥ / ١٣٠) عن ابنِ حَجَر قوله عنه في « التقريب » : « ثقةٌ » !!
ولا أصل لذلك ! إنما قال : « وثَّقه العجلي » وفَرْقٌ بينهما كما لا يخفى !
وانظر كتابنا « الرد العلمي » (٢ / ١٥٦ - ١٥٩) ففيه زيادةُ بيانٍ .

شَرْعَ اللَّهِ لم يكُنْ للَّهِ ، بل لا يكونُ للَّهِ إلا ما جَمَعَ الوصْفَيْنِ :

أَنْ يكونَ للَّهِ .

وأَنْ يكونَ موافِقًا لمحبَّةِ اللَّهِ ورسولِهِ .

وهو الواجِبُ والمستَحَبُّ ، كما قال تعالى : ﴿ **فَمَنْ كانَ يرجو لقاء رَبِّه فلْيعمَل عملًا صالحًا ولا يُشْرِكْ بعبادَةِ رَبِّهِ أحدًا** ﴾ [الكهف : ١١٠] .

فلابُدَّ مِنَ العملِ الصّالحِ ، وهو الواجِبُ والمستَحَبُّ ، ولابُدَّ أنْ يكونَ خالِصًا لوجهِ اللَّهِ تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ **بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للَّهِ وهو مُحْسِنٌ فله أجرُهُ عند رَبِّهِ ولا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنون** ﴾ [البقرة : ١١٢] .

وقال النبيُّ ﷺ : « **مَنْ عَمِلَ عَمَلًا ليس عليه أَمْرُنا فهو رَدٌّ** »[(١)] .

وقال النبيُّ ﷺ : « **إنّما الأعمالُ بالنيّات وإنّما لكلِّ امرئٍ ما نَوى ؛ فَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ إِلى اللَّهِ ورسولِهِ ، فهجرَتُهُ إِلى اللَّهِ ورسولِهِ ، ومَنْ كانت هجرَتُهُ لدُنْيا يُصيبُها أو امرأةٍ يَتزَوَّجُها فهجرَتُهُ إِلى ما هاجرَ إليه** »[(٢)] .

وهذا الأصْلُ هو أَصْلُ الدِّيْنِ ، وبحَسبِ تحقيقِهِ يكونُ تحقيقُ

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨) وأبو داود (٤٦٠٦) وابن ماجه (١٤) وأحمد (٦ / ١٤٦ و ١٨٠ و ٢٤٠ و ٢٥٦ و ٢٧٠) والقُضاعي في « مسند الشهاب » (٣٥٩ و ٣٦٠) وغيرهم .

وانظر « جزء اتباع السنن » (ص ٣٣ - ٣٤) للضِّياء المقدسي ، وتعليقي عليه .

(٢) أخرجه البخاري (١) و (٥٤) (٢٥٢٩) ومسلم (١٩٠٧) عن عُمر رضي اللَّه عنه .

وانظر كتاب « الحِطّة في ذكر الصحاح الستة » (ص ١٤١ و ٢٨٩ و ٣٠٩) لصدّيق حسن خان - وتعليقي عليه ، ففيه ذِكْرُ عدَّة فوائد متعلّقة في هذا الحديثِ .

الدِّينِ ، وبه أرسلَ اللَّهُ الرّسلَ ، وأنزلَ الكُتبَ ، وإليه دعا الرّسولُ ، وعليه جاهَدَ ، وبه أَمَرَ ، وفيه رَغَّبَ ، وهو قُطْبُ الدِّينِ الذي تَدورُ عليه رَحاه .

والشّركُ غالِبٌ على النّفوسِ، وهو كما جاءَ في الحديثِ: « .. **هو في هذه الأُمَّةِ أَخْفى مِنْ دبيب النَّمْلِ** » (١) .

وفي حديثٍ آخَرَ : قال أبو بكر : يا رسولَ اللَّهِ ، كيف نَنْجو منه ، وهو أَخْفى مِنْ دبيبِ النَّمْلِ ؟ فقال النبيُّ ﷺ لأبي بكرٍ : « **ألا أُعَلِّمُكَ كلمةً إذا قُلْتَها نَجَوْتَ مِنْ دِقِّه وجِلِّهِ ؟! . قل : اللّهمَّ إنّي أعوذُ بك أَنْ أُشْرِكَ بكَ وأَنَا أَعلمُ ، وأَسْتَغْفِرُكَ لما لا أعلمُ** » (٢) .

وكان عمرُ يقولُ في دُعائه : « اللّهمَّ اجعَلْ عَمَلي كلَّه صالحًا ، واجعَلْهُ لوَجْهِكَ خالِصًا ، ولاتَجعلْ لأَحَدٍ فيه شيئًا » .

وكثيرًا ما يخالِطُ النّفوسَ مِنَ الشّهواتِ الخفيّةِ ما يُفْسِدُ عليها تحقيقَ مَحبّتِها للّهِ وعُبودِيَّتها له ، وإخلاصَ دِينها له ، كما قال شدَّادُ ابنُ أَوْسٍ : يا نَعَايا (٣) العرب ! يا نَعَايا العربَ ! إِنَّ أَخْوفَ ما أخافُ عليكم الرّياءُ والشّهوةُ الخفيّة (٤) .

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٦٣) .

(٢) تقدم تخريجه تحت تخريج السابق .

(٣) تصحّف في عدّة نسخ إلى : « يا بقايا ... » !

(٤) وقد صحّ هذا مرفوعًا :

رواه البيهقي في « الزهد » (ص ٣١٩) وبَحْشَل في « تاريخ واسط » (ص ٢٢٠) وابن عدي في « الكامل » (٤ / ١٥٢٩) وأبو نُعيم في « الحلية » (٧ / ١٢٢) وفي « أخبار أصبهان » (٢/ ٦٦) من طريق عبد اللّه بن بُديل ، عن الزُّهري ، عن عَبّاد بن تميم عن عمّه مرفوعًا . =

وقيل لأبي داودَ السِّجِسْتانِيِّ [(١)] : وما الشَّهوةُ الخفيّةُ ؟ قال : حُبُّ الرِّئاسةِ .

وعن كَعْبِ بنِ مالكٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « **ما ذئبانِ جائِعانِ أُرْسِلا في زريبةِ غنمٍ بأفسدَ لها مِنْ حِرْصِ المرءِ على المالِ والشَّرَفِ لِدينه** » [(٢)] .

قال التِّرْمِذيُّ : حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ [(٣)] .

فبيَّنَ ﷺ أَنْ الحِرْصَ على المالِ والشَّرفِ ، في إفسادِ الدِّين ، لا ينقُصُ عن إفسادِ الذئبين الجائعين لزريبةِ الغنم .

وذلك بَيِّنٌ ؛ فإنَّ الدِّينَ السَّليمَ لا يكونُ فيه هذا الحرصُ ، وذلك أَنَّ القلبَ إذا ذاقَ حلاوةَ عُبودِيَّتِهِ للَّهِ ومحبَّتِهِ له ، لم يكُنْ شيءٌ أَحبَّ إليه مِنَ ذلك حتى يُقَدِّمَه عليه ، وبذلك يَصْرِفُ - عن أَهْلِ الإخلاصِ

= وفي ابن بُديل كلامٌ يسيرٌ .

لكنّه توبع :

فأخرجه الشَّجَري في « الأمالي » (٢ / ٢٢٠) من طريق عُبيد اللَّه بن عُمر ، عن الزُّهري ، به .

فالسند صحيحٌ إن شاء اللَّه .

وقوله : « يا نعايا » : ذكر الزَّمَخْشَرِيُّ في « الفائق » (٣ / ١٠٩) له ثلاثة أوجه ، ثم قال : « والمعنى : يا نعايا العَرَب جئن فهذا وقتكنّ وزمانكنّ ، يُريد أن العرب قد هلكت » .

وانظر « غريب الحديث » (٤ / ١٦٩ - ١٧٠) للهروي .

وقد تصحّفت في « تاريخ واسط » إلى : « بغايا » ! وهو تحريفٌ شَنيعٌ !!!

(١) وهو الإمام الحافظ سُليمان بن الأشعث ، صاحب « السُّنن » توفي سنة (٢٧٥ هـ) رحمه اللَّه ، ترجمتُه في « السِّيَر » (١٣ / ٢٠٣) .

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٥٦ و ٤٦٠) والترمذي (٢٤٨٢) والنسائي في « الكبرى » - كما في « تُحفة الأشراف » (٨ / ٣١٦) - وابن حِبّان في « صحيحه » (٢٤٧٢) وابن المبارك في « الزهد » (١٨١ - زيادات نُعيم) والدارمي (٢٧٣٣) والطبراني في « الكبير » (١٩ / ٨٨ / ١٨٩) .

(٣) وهو كما قال .

للَّهِ - السُّوءَ والفَحْشاءَ ، كما قال تعالى : ﴿ **كذلك لنَصْرِفَ عنه السُّوء والفَحْشاءَ إنّه مِنْ عبادِنا المخلَصين** ﴾ [يوسف : ٢٤] .

فإِنَّ المُخْلِصَ للَّهِ ذاقَ مِنْ حلاوةِ عُبودِيّتِهِ للَّهِ ما يمنَعُه عن عبودِيّتِهِ لغيرِهِ ، ومِنْ حلاوةِ مَحَبَّتِهِ للَّهِ ما يمنعُهُ عن مَحبّةِ غيرِهِ ، إِذْ ليس عندَ القلبِ السّليمِ لا أَحْلى ولا ألذُّ ولا أَطْيَبُ ولا أَسَرُّ ولا أَلْيَنُ ولا أَنْعَمُ مِنْ حلاوةِ الإيمانِ المتضَمِّنِ عبودِيَّتَه للَّهِ ومَحَبَّتَهُ له وإخلاصَه الدّينَ له .

وذلك يَقْتَضِي انْجِذابَ القلبِ إلى اللَّهِ ، فيصيرُ القلبُ مُنِيبًا إلى اللَّهِ ، خائفًا منه ، راغبًا راهِبًا ، كما قال تعالى : ﴿ **مَنْ خَشِيَ الرّحمنَ بالغيبِ وجاءَ بقلبٍ مُنيبٍ** ﴾ [ق : ٣٣] .

إذ المحبُّ يخافُ مِنْ زَوَالِ مطْلُوبِهِ ؛ أو عَدَمِ حُصولِ مرغوبِهِ ، فلا يكونُ عبدُ اللَّهِ وَمُحِبُّهُ ، إلَّا بَيْنَ خوْفٍ ورَجاءٍ ، كما قال تعالى : ﴿ **أُولئِكَ الَّذينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهم الْوَسيلةَ أَيُّهم أَقْرَبُ ويَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ويَخافُونَ عَذابَهُ إنَّ عَذابَ ربِّكَ كان مَحْذُورًا** ﴾ [الإسراء : ٥٧] .

وإذا كانَ العبدُ مُخْلِصًا للَّهِ اجْتَبَاهُ رَبُّه ، فأَحيا قَلْبَهُ واجتَذَبَهُ إليه ، فينصرفُ عنه ما يُضادُّ ذلك من السُّوءِ والفحشاءِ ، ويخافُ مِنْ حُصولِ ضِدِّ ذلك ، بخلاف القَلْبِ الذي لم يُخْلِصْ للَّهِ ؛ فإنَّ فيه طلبًا وإرادةً وحُبًّا مُطْلقًا ، فيَهْوى ما يَسْنَحُ له ، ويتشبَّثُ بما يهواه ، كالغُصْنِ ، أَيّ نسيم مرَّ به عَطفَه وأمالَهُ ، فتارةً تَجْتَذِبُهُ الصُّورُ المحرَّمةُ وغيرُ المحرّمةِ ، فيبقى أَسيرًا عَبدًا لمن لو اتَّخذَهَ هو عَبْدًا له لكان ذلك عيْبًا ونَقْصًا وذَمًّا .

وتارةً يجتَذِبُهُ الشّرفُ والرّئاسَةُ ، فتُرضِيه الكلمةُ ، وتُغْضِبُهُ الْكَلِمَةُ ، ويسْتَعبدُهُ مَنْ يُثْني عليه ولو بالباطلِ ، ويُعادِي مَنْ يَذُمُّهُ ولو بالحقِّ .

وتارة يستَعْبِدُهُ الدّرهَم والدّينارُ ، وأمثالُ ذلك مِنَ الأُمورِ التي تَسْتَعْبِدُ القلوبَ ، والقلوبُ تَهْواها ، فيتَّخِذُ إِلَهَهُ هواهُ ، ويتَّبِعُ هواه بغيرِ هدىً مِنَ اللَّهِ .

ومَنْ لم يكُنْ خالِصًا للَّهِ ، عَبْدًا له ، قد صارَ قلبُهُ مُعبَّدًا لربِّه وحْدَهُ لا شريكَ له ، بحيثُ يكونُ اللَّهُ أَحَبَّ إليه مِنْ كلِّ ما سواه ، ويكونُ ذليلًا له خاضِعًا ، وإِلَّا استعْبَدَتْهُ الْكائناتُ ، وَاسْتَوْلَتْ على قَلْبِهِ الشّياطينُ ، وكانَ مِنَ الْغَاوِين إخوانِ الشّياطين ، وصارَ فيه من السُّوءِ والفَحْشاءِ ما لا يعلمهُ إِلّا اللَّهُ .

وهذا أَمر ضروريٌّ لا حِيلةَ فيه .

فالقَلْبُ إِنْ لم يَكُنْ حَنيفًا مُقْبِلًا على اللَّهِ مُعْرِضًا عمّا سواه ، كان مُشْرِكًا قالَ تعالى : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفًا فِطْرَةَ اللَّه الَّتي فَطَرَ النّاسَ عليها لا تَبْديلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ القيّمُ ولكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ * مُنيبينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوه وأَقِيمُوا الصّلاةَ ولا تَكُونوا مِنَ المُشركينَ * مِنَ الَّذينَ فرَّقُوا دِيْنَهَم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بما لدَيْهم فَرِحونَ** ﴾[الأنعام : ١٥٧- ١٥٩] .

وقد جعلَ اللَّهُ سبحانه إبراهيمَ وآلَ إبراهيم أَئِمَّةً لهؤلاءِ الحُنفاءِ المخلِصين أهلِ مَحبتِهِ اللَّهِ وعبادَتِهِ وإِخْلاصِ الدِّينِ له ، كما جعلَ فرعونَ وآلَ فرعونَ أئمّةَ المشركين المتّبعين أهواءَهم :

قال تعالى في إبراهيمَ : ﴿ وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُم أئمَّةً يَهْدُون بأمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيْراتِ وإِقامَ الصّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عَابدينَ ﴾ [الروم : ٣٠ - ٣٢] .

وقال في فِرْعَوْنَ وقومِهِ : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أئمةً يَدْعُونَ إِلى النّار وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ * وأَتْبَعْنَاهُم في هذه الدُّنيا لَعْنَةً ويَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ المَقْبُوحِينَ ﴾ [القَصص : ٤١ - ٤٢] .

ولهذا يصيرُ أَتباعُ فِرعونَ أولًا إِلى أَنْ لا يُمَيِّزُوا بين ما يُحِبُّه اللَّهُ ويرضاه ، وبينَ ما قَدَّرَ اللَّهُ وقَضاه ، بل يَنْظُرون إِلى المشيئةِ المُطْلَقةِ الشَّاملةِ ، ثم في آخِرِ الأَمْرِ لا يُمَيِّزون بينَ الخالِقِ والمخلوقِ ، بل يَجْعَلُونَ وُجودَ هذا وُجودَ هذا !!

ويقولُ مُحَقِّقوهم [١] : الشّريعةُ فيها طاعَةٌ ومعصيةٌ ، والحقيقةُ فيها معصيةٌ بلا طاعةٍ ، والتّحقيق ليس فيه طاعةٌ ولا معصيةٌ !!

وهذا تحقيقُ مذهبِ فرعونَ وقومِهِ الَّذينَ أنكروا تكليمَه لعبدِهِ مُوسى ، وما أَرْسَلَهُ به مِنْ الأَمْرِ والنَّهْي .

* * *

(١) هم مُحَقِّقو انحرافاتِهم وضلالاتِهم !!
واليومَ رَأَيْنا مَن انْتكَسَ على أُمِّ رَأْسِهِ ، لاهِثًا وراءَ خُزَعْبِيلات المتصّوفةِ وتُرَّهاتِ أهلِ (الكَشفِ) ، وضلالاتِ (علم الحقيقةِ) وقد كان قَبْلُ على الجادّةِ ، وما ذاكَ إِلّا بِسَبَبِ صُحْبَةِ أهل البدعِ والخُرافيّين !
نعوذُ باللَّهِ مِن الحَوْر بعدَ الكَوْر .

٣ - فصل

في الفَرْقِ بينَ الخالِقِ والمخلوقِ

وأَمَّا إبراهيمُ وآلُ إبراهيمَ الحُنَفَاءُ مِنَ الأَنْبياءِ والمؤمنينَ بهم ، فهم يعلمونَ أَنَّه لابُدَّ من الفَرْقِ بينَ الخالِقِ والمخلوقِ ، ولابُدَّ مِنَ الفَرْقِ بينَ الطّاعةِ والمعصِيَةِ ، وأَنَّ العبدَ كُلَّما ازدادَ تحقيقًا لهذا الفَرْقِ ، ازدادَتْ مَحبَّتُه للَّهِ وعبوديَّتُهُ له ، وطاعتُهُ له ، وإعراضُهُ عن عبادةِ غيرِهِ ومحَبَّةِ غيرِه ، وطاعَةِ غيرِه .

وهؤلاءِ المشركون الضّالون يُسَوُّون بينَ اللَّهِ وبينَ خَلْقِه ، والخليلُ يقول [1] : ﴿ **أَفَرَأَيْتُم ما كُنتُم تَعْبدُونَ * أَنتُم وآباؤكم الأَقْدَمُون * فإنَّهم عَدُوٌّ لي إلّا ربَّ العالَمين** ﴾ ، ويتمَسَّكون بالمتشابهِ مِنْ كلامِ المشايخِ كما فَعَلَتِ النصارى .

مثالُ ذلك : اسم « الفَناءِ » ، فإنَّ الفناءَ ثلاثةُ أَنْواعٍ :

نوعٌ للكاملين مِنَ الأنبياءِ والأَوْلياء .

ونوعٌ للقَاصِدِين مِنَ الأَوْلياءِ والصّالحين .

ونوعٌ لِلْمُنافِقِين الملحدين المشبّهين .

فأمّا الأوّلُ : فهو الفناءُ عن إرادةِ ما سوى اللَّهِ :

---

(١) كما في سورة الشُّعَراء : آية ٧٥ - ٧٧ ، حكايةً عنه .

بحيثُ لا يُحِبُّ إلّا اللَّهَ ، ولا يعبدُ إلا إيّاه ، ولا يتوكَّلُ إلّا عليه ، ولا يطلبُ مِنْ غَيْرِه ؛ وهو المعنى الذي يَجبُ أَنْ يُقْصَدَ بقولِ الشَّيْخِ أبِي يزيدَ [(١)] ، حيثُ قال : « أريدُ أَنْ لا أُريد إلا ما يريدُ » ، أي : المرادُ المحبوبُ المرضِي ، وهو المرادُ بالإرادةِ الدينيّةِ .

وكمالُ العبْدِ أَنْ لا يُريدَ ولا يُحِبَّ ولا يَرْضى إلَّا ما أرادَه اللَّهُ ورَضِيَه وأَحبَّه ، وهو ما أَمَر به أَمْر إيجابٍ أَوِ استِحْبابٍ ، ولا يُحِبُّ إلّا ما يُحِبُّه اللَّهُ ، كالملائكةِ والأنْبياءِ والصّالحين ، وهذا معنى قولِهِم في قولِه : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتى اللَّهَ بقلبٍ سليمٍ ﴾ [الشُّعراء : ٨٩] ، قالوا : هو السَّليمُ مِمّا سوى اللَّهِ ، أَو مِمّا سوى عبادَةِ اللَّهِ ، أَو مِمّا سوى إرادةِ اللَّهِ ، أَو مِمّا سوى محبّةِ اللَّهِ ، فالمعنى واحِدٌ .

وهذا المعنى - إن سُمّيَ فناءً ، أو لم يُسَمَّ [(٢)] - هو أَوَّلُ الإسلامِ وآخِرُه ، وباطِنُ الدِّينِ وظاهِرُهُ .

وأَمّا النَّوْعُ الثَّاني : فهو الفناءُ عن شُهودِ السِّوى :

وهذا يحصلُ لكثيرٍ من السّالكين ، فإنّهم لفَرْطِ انجذابِ قلوبهم إلى ذِكْرِ اللَّهِ وعبادَتِهِ ومحبّتِه ، وضَعْفِ قلوبِهم عن أَن تشهَدَ غيرَ ما

---

(١) هو البِسْطاميّ ، المتوفى سنة (٢٦١ هـ) ترجمه الذهبيُّ في عدّة من كُتبه منها « ميزان الاعتدال » (٢ / ٣٤٦) ثم قال : « وأبو يزيدَ مِن أهلِ الفرق : فَمُسَلَّمٌ حالُه له ، واللَّه يتولّى السرائر ، ونتبرأ إلى اللَّه مِن كُلِّ مَن تعمّد مخالفةَ الكتاب والسنة » .

وفي هامش مخطوطة « الميزان » تعليقٌ :

« أخطأ الذهبيُّ في قوله : « يُسَلّم له حالُه » ما يُسَلَّم حالُه وحال غيرِه إلا إلى كتاب اللَّهِ وسُنَّة نَبيّه » .

(٢) فالعبرة بالمسمَّيات والحقائق ، لا بالأسماء والمظاهر ، ولكنْ يُجْتَنَبُ مِن الأسماء ما فيه شَوْبُ مخالفةٍ أو شُبْهة .

تعبدُ ، وترى غيرَ ما تَقْصِدُ ، لا يخطرُ بقلوبهم غيرُ اللَّهِ ، بل لا يشعرون إلّا به ، كما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وأصبحَ فؤادُ أُمِّ موسى فارِغًا إِنْ كادَتْ لتُبْدِي به لولا أَنْ رَبَطْنَا على قَلْبها** ﴾ [القَصص : ١٠] ، قالوا : فارِغًا مِنْ كلِّ شَيءٍ إلا مِنْ ذِكْرِ مُوسى .

وهذا كثيرًا ما يَعْرِضُ لِمَنْ دَهَمَهُ أَمْرٌ مِنَ الأُمورِ ، إمّا حُبٌّ ، وإمّا خَوْفٌ ، وإمّا رَجاءٌ ؛ يَبْقى قلبُه مُنْصَرِفًا عن كلِّ شيءٍ إلّا عمّا قد أَحَبَّه أو خافَه أو طَلَبَه ؛ بحيثُ يكونُ عندَ استغراقِه في ذلك لا يَشْعُرُ بغيرِه .

فإذا قَوِيَ على صاحبِ الفناءِ هذا ، فإنّه يغيبُ بموجودِه عن وُجودِه ، وبمَشْهودِهِ عن شُهودِه ، وبمَذْكورِه عن ذِكْرِه ، وبمَعْروفِه عن مَعْرِفته ، حتى يَفْنى مَنْ لم يَكُنْ - وهي المخلوقاتُ : العبدُ فَمَنْ سواه - ويَبْقى مَنْ لم يَزَلْ - وهو الربُّ تعالى - والمرادُ فناؤها في شُهودِ العبدِ وذِكْرِه ، وفناؤُهُ عنْ أَنْ يُدْرِكَها أو يَشْهَدَها .

وإذا قَوِيَ هذا ، ضَعُفَ المُحِبُّ حتى يضطربَ في تَمْييزِه ، فقد يَظُنُّ أَنّه هو محبوبُه ! كما يُذْكَرُ أَنَّ رجلًا أَلْقى نَفْسَه في اليَمِّ ، فأَلْقى مُحِبُّه نَفْسَه خَلْفَه ، فقال : أَنا وَقَعْتُ ، فما أَوْقَعَك خَلْفي ؟ قال : غِبْتُ بك عَنّي ، فَظَنَنْتُ أَنَّكَ أَنّي !!

وهذا الموضعُ زَلَّتْ فيه أقوامٌ ، وظَنُّوا أَنّه اتّحادٌ ، وأَنَّ المُحِبَّ يتَّحدُ بالمحبوبِ ، حتى لا يكونَ بينهما فَرْقٌ في نفسِ وَجودِهما !

وهذا غَلَطٌ ، فإنَّ الخالِقَ لا يتَّحِدُ به شيءٌ أَصْلًا ، بل لا يمكنُ أَنْ

يتَّحِدَ شيءٌ بشيءٍ ، إلّا إذا استحالا وَفَسَدَتْ حقيقةُ كلٍّ منهما ، وحَصَلَ مِنَ اتّحادِهما أَمْرٌ ثالِثٌ ، لا هو هذا ولا هذا ، كما إذا اتَّحَدَ الماءُ واللَّبنُ ، والماءُ والخمرُ ، ونحوُ ذلك .

ولكِنْ يَتَّحِدُ المرادُ والمحبوبُ والمرادُ والمكروهُ ، ويَتَّفِقان في نَوْعِ الإرادةِ والكراهَةِ ، فَيُحِبُّ هذا ما يُحِبُّ هذا ، ويُبْغِضُ هذا ما يُبْغِضُ هذا ، ويَرْضى ما يَرْضى ، ويَسْخَطُ ما يَسْخَطُ ، ويكْرَهُ ما يَكْرَهُ ، ويُوالي مَنْ يُوالي ، ويُعادِي مَنْ يُعادِي .

وهذا الفناءُ كلُّه فيه نَقْصٌ .

وأكابرُ الأَوْلياءِ كأبي بكرٍ وعُمَرَ ، والسّابقين الأَوّلين مِنَ المهاجرين والأَنْصارِ ، لم يَقَعوا في هذا الفناءِ ، فَضْلًا عمَّن هو فوقَهم مِنَ الأَنْبياءِ ، وإنّما وقع شيءٌ مِنْ هذا بعدَ الصّحابةِ [١] .

وكذلك كلُّ ما كان مِنْ هذا النّمطِ مِمّا فيه غَيْبةُ العقْلِ وعدمُ التّمييزِ لما يَرِدُ على القلبِ مِنْ أَحْوال الإيمانِ .

فإنَّ الصحابةَ رضي اللَّهُ عنهم كانوا أَكملَ وأَقوى وأَثبت في الأحوالِ الإيمانيّةِ مِنْ أَنْ تغيبَ عقولُهم ، أو يحصُل لهم غشيٌ أو ضَعْفٌ أَو سُكْرٌ ، أو فناءٌ ، أو وَلَهٌ ، أو جنونٌ .

وإنّما كان مبادئُ هذه الأُمورِ في التّابعين مِن عُبّادِ البصرةِ ، فإنّه كان فيهم مَنْ يُغْشى عليه إذا سَمِعَ القرآنَ ، ومنهم مَنْ يموتُ ، كأبي

---

(١) فهو مردودٌ عليهم ولا كرامة !

جُهَيرِ الضّرير [١] ، وزُرارةَ بنِ أَوْفى [٢] قاضي البصرةِ .

وكذلك صارَ في شيوخِ الصوفيّة مَنْ يَعْرِضُ له مِنَ الفناء والسُّكْرُ ما يَضْعُفُ معه تمييزُه ، حتى يقولَ في تلك الحالِ مِنَ الأَقوالِ ما إذا صَحا عَرَفَ أنّه غالِطٌ فيه ، كما يُحْكَى نحوُ ذلك عن مثلِ أبي يزيدَ ، وأبي الحُسَين النُّوري [٣] ، وأبي بكرِ الشِّبْلي ، وأمثالهم ، بخلافِ أبي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيّ ، ومَعْروفِ الكَرْخِيّ ، والفُضَيْلِ بن عِياضٍ ، بل وبخلافِ الجُنَيْدِ وأمثالِه ، مِمّن كانت عقولُهم وتمييزُهم يَصْحَبُهم في أَحْوالِهم ، فلا يَقَعُون في مثلِ هذا الفناءِ والسُّكْرِ ونحوِهِ .

بل الكُمَّلُ تكون قلوبُهم ليسَ فيها سِوى محبَّةِ اللَّهِ وإرادَتِه وعبادَتِهِ ؛ وعندهم مِنْ سَعَةِ العِلْمِ والتَّمييزِ ما يَشْهَدُون [به] الأُمورَ على ما هي عليه ، بل يشهدونَ المخلوقاتِ قائمةً بأمْرِ اللَّهِ ، مُدبَّرةً بمشيئَتِه ، بل مُستجيبةً له ، قانتةً له ، فيكونُ لهم فيها تَبْصِرةٌ وذِكْرى ، ويكونُ ما يَشْهَدُونه مِنْ ذلك مُؤَيِّدًا ومِمِدًّا لِمَا في قُلوبِهم مِنْ إخْلاصِ الدّين ، وتَجْريدِ التَّوحيدِ له ، والعبادَةِ له وحده لا شريكَ له .

وهذه هي الحقيقةُ التي دعا إليها القرآنُ ، وقَامَ بها أَهْلُ تحقيق الإيمانِ والكمَّلُ مِنْ أهلِ العِرْفان ، ونَبِيُّنا ﷺ إمامُ هؤلاءِ وأكمَلُهم ، ولهذا لما عُرِجَ به إلى السّماواتِ وعاينَ ما هنالك مِنَ الآياتِ ، وأُوحِيَ

---

(١) لم أقِف على ترجمتِه ، فلعلّ فيه تَحْريفًا .

(٢) ترجمته في « حلية الأولياء » (٢ / ٢٥٨) ، والخَبَرُ فيه .

وانظر « المنتقى النفيس .. » (ص ٣٢٩ - ٣٣٥) بقَلَمي .

(٣) هو أحمد بن محمد ، توفي سنة (٢٩٥ هـ) ، ترجمته في « السِّيَر » (١٤ / ٧٠) .

إليه ما أُوحِيَ مِنْ أنواعِ المناجاةِ ، أَصبحَ فيهم وهو لم يتغيَّرْ حالهُ ، ولا ظهرَ عليه ذلك ، بخلافِ ما كان يظهرُ على مُوسى مِنَ التَّغَشّي [1] ، صلى الله عليهم وسلم أَجْمعين .

وأما النوعُ الثالثُ ممّا قد يُسَمّى فناءً :

فهو أَنْ يشهدَ أَنْ لا موجودَ إلا اللَّهُ ، وأَنَّ وجودَ الخالقِ هو وجودُ المخلوقِ ، فلا فَرْقَ بين الربِّ والعَبْدِ ! فهذا فناءُ أَهلِ الضّلالِ والإلحادِ ، الواقِعين في الحُلولِ والاتّحادِ ، وهذا يَبْرأُ منه المشايخُ المُستَقيمون ، فإذا قالَ أحدُهم : ما أَرى غيرَ اللَّهِ ، أو : لا أنظرُ إلى غيرِ اللَّهِ ، ونحو ذلك ، فمرادُهم بذلك : ما أَرى رَبًّا غيرَه ، ولا خالقًا ، ولا مُدَبِّرًا غيْرَه ، ولا إِلهًا غيْرَه ، ولا أنظرُ إلى غيرِه محَبَّةً له أَو خوفًا منه أو رجاءً له ، فإنَّ العَيْنَ تنظرُ إلى ما يتعَلَّقُ به القلبُ .

فَمَنْ أَحَبَّ شيئًا أو رجاه أوْ خافه التفتَ إليه ، وإذا لم يَكُنْ في القلبِ مَحَبَّةٌ له ولا رجاءٌ له ، ولا خوفٌ منه ، ولا بُغْضٌ له ، ولا غيرُ ذلك مِن تعلُّقِ القلبِ به ، لم يقصد القلبُ أَنْ يلتفتَ إليه ، ولا أَنْ ينظُرَ إليه ، ولا أَنْ يراه ، وإنْ رآه اتّفاقًا رؤيةً مُجرَّدةً ، كان كما لو رأَى حائِطًا ونَحْوَه ممّا ليسَ في قَلْبِهِ تَعَلُّقٌ به .

والمشايخُ الصّالحون - رَضِيَ اللَّهُ عنهم - يَذْكُرون شيئًا مِنْ تجريدِ التّوحيدِ وتحقيقِ إخلاصِ الدّين كُلِّه ، بحيثُ لا يكونُ العبدُ مُلْتَفِتًا إلى غيرِ اللَّهِ ، ولا ناظِرًا إلى ما سواه ، لا حُبًّا له ولا خَوْفًا منه ، ولا رجاءً له ، بل يكونُ القَلْبُ فارِغًا مِنَ المخلوقاتِ ، خاليًا منها ، لا ينظرُ

(١) وفي ذلك نَظَرٌ .

إليها إلّا بنُورِ اللَّهِ .

فبالحَقِّ يسمَعُ ، وبالحقِّ يبصِرُ ، وبالحَقِّ بيطِشُ ، وبالحَقِّ يَمْشِي ، فَيُحِبُّ منها ما يُحِبُّه اللَّهُ ، ويُبغِضُ منها ما يُبْغِضُهُ اللَّهُ ، ويُوالِي منها ما والاه اللَّهُ ، ويُعَادِي منها ما عاداه اللَّهُ ، ويخافُ اللَّهَ فيها ، ولا يخافُها في اللَّهِ ، ويَرجو اللَّهَ فيها ، ولا يرجوها في اللَّهِ ؛ فهذا هو القلبُ السّليمُ الحنيفُ المُوَحِّدُ المسلمُ المؤمِنُ المحقّقُ العارِفُ بمعرفةِ الأنبياءِ والمرسَلين وبحقيقَتِهم وتَوْحِيدهم .

فهذا النَّوْعُ الثالثُ - الذي هو الفناءُ في الوُجودِ - هو تحقيقُ آلِ فرعونَ ومعرفَتُهم وتوحيدُهم ؛ كالقرامِطَةِ [1] ، وأَمْثالِهِم .

وأَمّا النّوعُ الذي عليه أتباعُ الأنبياءِ فهو الفناءُ المحمودُ ، الذي يكون صاحِبُهُ به مِمّنْ أَثْنَى اللَّهُ عَليهم مِنْ أوليائِه المتّقين ، وحِزْبِهِ المُفْلِحين ، وجُنْدِه الغالِبين .

وليس مُرادُ المشايخِ والصّالحين بهذا القَوْلِ أَنَّ الذي أَراه بعَيْنِي مِنَ المخلوقاتِ : هو رَبُّ الأرضِ والسّماواتِ ! فإِنَّ هذا لا يقولُه إلا مَنْ هو في غايةِ الضّلالِ والفَسادِ ؛ إمّا فسادُ العَقْلِ ، وإمّا فسادُ الاعتقادِ ، فهو مترَدِّدٌ بينَ الجُنونِ والإلحادِ .

---

(١) هم فرقةٌ مِن الباطنية ، تُنْسَبُ إلى حمدان بن الأشعث الذي كان يُلَقَّب بـ (قُرْمُط) ، « وقد كانوا يسلكون طريق التأويل في الخَبَر والأمر جميعًا لمعارضة العقل عندهم ، وهؤلاء مِن أعظم الناس كفرًا وإلحادًا » . كما قال المصنِّفُ في « درء تعارض العقل والنقل » (١ / ١٧٦) .
وانظر « الفرق بين الفرق » (٢٨١ - ٢٩١) ، و « مقالات الإسلاميين » (١ / ٩٨) ، و « المنتظم » (٥ / ١١٠ - ١١٩) .

وكلُّ المشايخِ الذين يُقْتَدى بهم في الدِّيْنِ مُتَّفِقُون على ما اتَّفَقَ عليه سَلَفُ الأُمَّةِ وأئمتُها ، مِنْ أَنَّ الخالقَ سبحانه مُبايِنٌ للمخلوقاتِ ، وليس فِي مخلوقاتِه شيءٌ مِن ذاته ، ولا في ذاتِه شيءٌ مِنْ مخلوقاتِه ، وأَنَّه يجبُ إفرادُ القديم عن الحادثِ ، وتمييزُ الخالقِ عن المخلوقِ ، وهذا في كلامِهم أكثرُ مِنْ أَنْ يمكنَ ذِكْرُه هنا .

وهم قد تَكَلَّمُوا على ما يَعْرِضُ للقلوبِ مِنَ الأمراضِ والشُّبهاتِ ؛ فإِنَّ بعضَ النّاسِ قد يَشْهَدُ وجودَ المخلوقاتِ ، فيظُنُّهُ خالقَ الأرْضِ والسّماواتِ - لعَدَمِ التّمييزِ والفُرْقانِ في قَلْبِه - بمنزلةِ مَنْ رأى شعاعَ الشّمسِ فظَنَّ أَنَّ ذلك هو الشمسُ التي في السّماءِ !

وَهُمْ قد يَتَكَلَّمُون في الفَرْقِ والجَمْعِ [١] ، ويَدْخُلُ في ذلك من العباراتِ المختلفةِ نظيرُ ما دَخَلَ في الفَناءِ .

فإِنَّ العبدَ إذا شَهِدَ التفرقةَ والكثرةَ في المخلوقاتِ ، يَبْقَى قلبُهُ متعَلِّقًا بها مُشَتَّتًا ناظِرًا إليها ، مُتَعَلِّقًا بها ؛ إمّا مَحَبّةً ، وإمّا خوفًا ، وإمّا رجاءً ، فإذا انتقل إلى الجَمْعِ اجتمعَ قلبهُ على توحيدِ اللَّهِ وعبادَتِهِ وَحْدَه لا شريكَ له ، فالتفتَ قَلْبُهُ إلى اللَّهِ بعد التفاته إلى المخلوقين ، فصارَتْ مَحَبَّتُه لربِّه ، وخَوْفُه مِنْ رَبِّه ، ورجاؤهُ لِرَبِّهِ ، واستعانتُهُ بربِّه ، وهو في هذا الحالِ قد لا يَسَعُ قلبَه النَّظَرُ إلى المخلوقِ ، ليفرِّق بين الخالِقِ والمخلوق ، فقد يكونُ مُجْتَمِعًا على الحقِّ ، مُعْرِضًا عن الخَلْقِ ، نَظَرًا وقَصْدًا ، وهو نظيرُ النَّوْعِ الثاني مِنَ الفناءِ .

ولكِنْ بعدَ ذلك الفرق الثّاني ، وهو أَنْ يشهدَ أَنَّ المخلوقاتِ قائمةٌ

---

(١) قالوا : « الفرقُ : ما نُسِب إليك ، والجمعُ : ما سُلب عنك » !! « التعريفات » (ص ٨٠) للجُرجاني .

باللَّهِ ، ومُدَبَّرةٌ بأَمْرِهِ ، ويشهَدَ كَثْرَتَها معدومةً بوحدانيّةِ اللَّهِ سبحانه وتعالى ، وأَنَّه سبحانه رَبُّ المصنوعاتِ وإلهُها ، وخالِقُها ومالِكُها ، فيكونَ - مع اجتماعِ قَلْبِهِ على اللَّهِ إخلاصًا ومحبّةً وخَوْفًا ورجاءً واستعانةً وتوكّلًا على اللَّهِ وموالاةً فيه ومعاداةً فيه ، وأَمْثالَ ذلك - ناظِرًا إلى الفَرْقِ بين الخالقِ والمخلوقِ ، مُمَيِّزًا بينَ هذا وهذا ، ويَشْهَدُ تَفَرُّقَ المخلوقاتِ وكَثْرَتَها ، مع شهادتِهِ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ كلِّ شيءٍ ومليكه ، وخالقُه وأَنّه هو اللَّهُ لا إله إلَّا هو .

وهذا هو الشُّهودُ الصّحيحُ المستقيمُ ، وذلك واجِبٌ في عِلْمِ القلبِ وشهادتِهِ وذِكْرِهِ ومَعْرِفَتِهِ ، وفي حال القلبِ وعبادَتِه ، وقَصْدِه وإرادَتِه ، ومَحبّتِه وموالاتِه وطاعَتِه .

وذلك تحقيقُ شهادةِ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللَّهُ ، فإنّها تَنْفي عن قَلْبِهِ ألوهِيّةَ ما سوى الحقِّ ، وتُثْبِتُ في قَلْبِهِ ألوهيّةَ الحقِّ .

فيكونُ نافِيًا لألُوهِيّةِ كُلِّ شيءٍ مِنَ المخلوقاتِ ، ومُثْبِتًا لأُلوهِيّةِ رَبِّ العالَمِينَ ، رَبِّ الأرْضِ والسّماواتِ ، وذلك يتضَمَّنُ اجتماعَ القَلْبِ على اللَّهِ ، وعلى مفارَقةِ ما سواه ، فيكونُ مُفَرِّقًا - في عِلْمِه وقَصْدِهِ ، في شهادَتِه وإرادَتِه ، في مَعْرِفَتِه ومَحَبَّتِه - بينَ الخالِقِ والمخلوقِ ، بحيثُ يكونُ عالِمًا باللَّهِ تعالى ، ذاكرًا له ، عارِفًا به ، وهو مع ذلك عالِمٌ بمبايِنَتِهِ لخَلْقِهِ ، وانفرادِهِ عنهم ، وتَوَحُّدِه دُونَهم .

ويكونُ مُحِبًّا للَّهِ ، معَظِّمًا له ، عابِدًا له ، راجِيًا له ، خائِفًا منه ، مُحِبًّا فيه ، مُوالِيًا فيه ، معادِيًا فيه ، مُستعينًا به ، متوَكِّلًا عليه ، مُمْتَنِعًا عن عبادةِ غَيْرِه ، والتوَكُّلِ عليه ، والاستعانَةِ به ، والخوفِ منه ، والرَّجاءِ له ، والموالاةِ فيه ، والمعاداةِ فيه ، والطّاعَةِ لأَمرِه ، وأمثالِ ذلك

ممّا هو مِنْ خصائصِ إلهيّةِ اللَّهِ سبحانه وتعالى .

وإقرارُه بألوهيّةِ اللَّهِ تعالى دونَ ما سواه ، يتضمّنُ إقرارَهُ بربوبيّتِه ؛ وهو أنّهُ رَبُّ كُلِّ شيءٍ ومليكُه وخالقُه ومُدَبِّرُه ، فحينئذٍ يكونُ مُوَحِّدًا للَّهِ .

وَيُبَيِّنُ ذلك أَنَّ أَفضلَ الذِّكْرِ « لا إلهَ إلا اللَّهُ » كما رواه التِّرمِذيّ ، وابنُ أبي الدّنيا ، وغيرُهما مرفوعًا إلى النبيِّ ﷺ أنه قال : « **أَفْضَلُ الذِّكْرِ : لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وأَفْضَلُ الدُّعاءِ : الحمدُ للَّهِ** » [1] .

وفي « الموطّأ » وغيرِه [2] عن طلحةَ بن عُبَيْدِ اللَّهِ بنِ كُرَيز أَنَّ النبيَّ ﷺ قال : « **أَفْضَلُ ما قُلْتُ أنا والنبيّونَ مِنْ قَبْلي : لا إلهَ إلا اللَّهُ**

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٨٣) وابنُ أَبي الدنيا في « الشُّكر » (رقم : ١٠٣) والنَّسائي في « عمل اليوم والليلة » (٨٣١) وابن ماجه (٣٨٠٠) والبيهقي في « الدعوات » (١١٧) والحاكم (١ / ٤٩٨) والبَغَوي (١٢٦٩) وابن حِبّان (٨٤٦) وابن عبد البر في « التمهيد » (٦ / ٤٣) من طريق موسى بن إبراهيم الأنصاري ، بسند حسن .

(تنبيهٌ) : خرّج الحديثَ شيخُنا الألبانيُّ في « الصحيحة » (رقم ١٤٩٧) مُقْتَصِرًا في عزوه على ابن حبان والخرائطي والبَغَوي !

وانظر « نتائج الأفكار » (١ / ٥٩) للحافظ ابن حَجَر .

(٢) رواه مالك (١ / ٤٢٢ / ٢٤٦) والبيهقي (٤ / ٢٨٤) و (٥ / ١١٧) مرسلًا . وَوَصَلَهُ الطبراني في « مناسكِه » قال :

« حدثنا الحسن بن مُثَنَّى بن مُعاذ العنبري : حدثنا عفّان بن مسلم : حدثنا قيس بن الربيع ، عن الأغرّ بن الصبّاح ، عن خليفة ، عن عليّ ، عن النبيِّ ﷺ ... » .

فذكره ...

كذا في « البداية والنهاية » (٥ / ١٧٥) .

وهو في « صحيح ابن خزيمة » (٢٨٤١) مِن طريق قيس ، بهِ ، - وفيه تَطْبيعاتٌ - .

قلت :

وهو حَسَنٌ في الشواهد ، لما قِيلَ في حالِ قيس بن الربيع مِن سوءِ الحفظِ . =

وحده لا شريكَ له ، له الملكُ وله الحمدُ ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ » .

ومَنْ زعمَ أَنَّ هذا ذِكْرُ العامّةِ ، وأَنَّ ذِكْرَ الخاصّةِ هو الاسمُ المفرَدُ ! وذِكْرُ خاصّةِ الخاصّة هو الاسمُ المضمَرُ !! فهم ضالُّون غالِطون .

واحتجاجُ بعضِهم على ذلك بقوله : ﴿ **قُلِ اللَّه ثُم ذَرْهُم في خَوْضِهم يلعبون** ﴾ [الأنعام : ٩٢] .

مِنْ أَبْيَنِ غَلَطِ هؤلاءِ ؛ فإِنَّ الاسمَ (اللَّه) مذكورٌ في الأمْرِ بجوابِ الاستفهامِ في الآيةِ قَبْلَه ، وهو قوله : ﴿ **قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكتابَ الذي جاءَ به موسى نُورًا وهدىً للنّاس تجعلونَه قراطيسَ تُبدونَها وتُخْفون كثيرًا وعُلِّمْتم ما لم تَعْلَمُوا أَنتم ولا آباؤكم قل اللَّه** ﴾ أَي : اللَّهُ الَّذي أَنزلَ الكتابَ الذي جاءَ به موسى ، فالاسمُ (اللَّه) مبتدأٌ ، وخبرُه قد دلَّ عليه الاستفهام ، كما في نظائرِ ذلك ؛ تقول : مَنْ جارُه ؟ فيقول : زيدٌ .

وأَمّا الاسمُ المفردُ [1] مُظْهَرًا أو مُضْمَرًا ، فليسَ بكلامٍ تامٍّ ، ولا جملةٍ مفيدةٍ ، ولا يتعلَّقُ به إِيمانٌ ولا كُفرٌ ، ولا أَمْرٌ ولا نَهْيٌ .

= وله شاهد :

رواه أحمد (٦٩٦١) والترمذي (٣٥٨٥) وأبو نُعيم (٧ / ١٠٤) من طريق محمد بن أبي حُميد ، عن عمرو بن شُعَيب عن أبيه ، عن جَدِّه . ومحمد بن أبي حُميد ضعيفٌ .

فالحديث حَسَنٌ إن شاء اللَّه . وله طرق أخرى ، فانظر : « الفتوحات الربانية » (٤ / ٧٤٨) و « تخريج الإحياء » (١ / ٢٥٣) و « إتحاف السادة المتقين » (٤ / ٣٧٣) و « البداية والنهاية » (٥ / ١٧٤ - ١٧٦) و « السلسلة الصحيحة » (١٥٠٣) .

(١) وفي كتاب « المِنْحَة المحمّدية في بيان العقائد السلفية » (ص ٢٣٠) للشقيري فَصْلٌ بعنوان « الذكر بالاسم المفرد بدعة » فَلْيُنْظَر .

وانظر كتابي « المنتقى النفيس من تلبيس إبليس » (ص ٤٣١) .

ولم يَذْكُرْ ذلك أَحَدٌ مِنْ سلفِ الأُمّةِ ، ولا شَرَعَ ذلك رسولُ اللّهِ ﷺ ، ولا يُعْطِي القَلْبَ بنفسِه معرفةً مفيدةً ، ولا حالًا نافعًا ، وإنّما يُعْطِيه تَصَوُّرًا مُطْلَقًا لا يُحكَمُ عليه بنَفْيٍ ولا إثباتٍ .

فإنْ لم يَقْتَرِنْ به مِنْ معرفةِ القلبِ وحالِهِ ، ما يفيدُ بنفسِه ، وإلا لم يَكُنْ فيه فائدةٌ ، والشّريعةُ إنّما تَشْرَعُ مِنَ الأذكارِ ما يفيدُ بنفسِه ، لا ما تكونُ الفائدةُ حاصلةً بغيرِه .

وقد وقعَ بعضُ مَنْ واظبَ على هَذا الذِّكْرِ في فُنونٍ مِنَ الإلحادِ ، وأَنْواعٍ من الاتّحادِ ، كما قد بُسِطَ في غير هذا الموضِعِ .

وما يُذْكَرُ عن بعضِ الشّيوخِ مِنْ أنَّه قال : أخافُ أَنْ أموتَ بين النَّفْي والإثباتِ ، حالٌ لا يُقْتَدى فيها بصاحِبها ؛ فإنَّ في ذلك مِنَ الغَلَطِ ما لا خفاءَ به ؛ إذ لو ماتَ العبدُ في هذه الحالِ ، لم يَمُتْ إلا على ما قَصَدَه ونَواه ؛ إذ الأعمالُ بالنّيّات .

وقد ثبتَ أَنَّ النبيَّ ﷺ أَمَرَ بتلقين الميّتِ : « **لا إلهَ إلا اللّهُ** » (١) .

وقال : « **مَنْ كانَ آخرَ كلامه : لا إلهَ إلا اللّهُ ؛ دخلَ الجنَّةَ** » (٢) .

---

(١) رواه مسلمٌ في « صحيحه » (رقم : ٩١٧) .
وقد أُعِلَّ بما لا يقدحُ .
فانظر تخريجه والكلامَ عليه مطوّلًا في كتاب « علل أحاديث صحيح مسلم » (رقم ١٩) لابن عمّار الشهيد - بتحقيقي وتعليقي .

(٢) رواه أبو داود (٣١١٦) والحاكم (١ / ٣٥١) وأحمد (٥ / ٢٣٣ و ٢٤٧) والطبراني في « الكبير » (٢٠ / ١١٢ / ٢٢١) وفي « الدعاء » (١٤٧١) والبيهقي في « الأسماء والصفات » (٩٩) والفَسَوي في « تاريخه » (٢ / ٣١٢) وابن منده في « التوحيد » (رقم : ١٨٧) عن مُعاذ ، بسند حَسَن .
وفي الباب عن غيره .
=

ولو كان ما ذكره مَحْذورًا ، لم يُلَقَّنِ الميتُ كلمةً يخافُ أَنْ يموتَ في أثنائِها مَوْتًا غيرَ محمودٍ ، بل كانَ يُلَقَّنُ ما اختارَه مِنْ ذكرِ الاسمِ المفردِ .

والذِّكْرُ بالاسمِ المضمرِ المفرَدِ أَبْعَدُ عن السُّنَّةِ ، وأَدْخَلُ في البِدْعَةِ ، وأقرَبُ إلى ضلالِ الشَّيطانِ ؛ فإنَّ مَنْ قال : هو يا هو ! أو : هو هو ! ونحو ذلك ، لم يَكُنِ الضّميرُ عائدًا إلّا إلى ما يُصَوِّرُهُ قلبُه ، والقَلْبُ قد يَهْتَدِي وقد يَضِلُّ .

وقد صَنَّفَ صاحِبُ « الفُصوص » (١) ، كتابًا سمّاه كتابَ « الْهُو » (٢) .

وزعَمَ بعضُهم أَنَّ قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٧] ، معناه : وما يعلمُ تأويلَ هذا الاسمِ الذي هو (الْهُو) ! .

وإِنْ كان هذا مِمّا اتَّفَقَ المسلمون - بل العقلاءُ - على أَنَّه مِنْ أَبْيَنِ الباطلِ ؛ فقد يَظُنُّ ذلك مَنْ يَظُنُّه مِنْ هؤلاءِ ، حتى قُلْتُ مَرَّةً لبعضِ مَنْ قال شيئًا مِنْ ذلك : لو كانَ هذا كما قُلْتَه لكُتِبَتِ الآيةُ : وما يَعْلَمُ تأويلَ « هو » منفصلةً .

ثم كثيرًا ما يَذْكُرُ بعضُ الشّيوخِ أَنّه يُحْتَجُّ على قولِ القائلِ : « اللَّه » بقولِهِ : ﴿ قل اللَّهُ ثم ذَرْهم ﴾ [الأنعام : ٩١] ، ويَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ

= وَقَد وردت في هذا الحديثِ قصةٌ عظيمةٌ في تلقين الشهادة لأبي زُرعة الرازي عند موتِهِ ، فانظرها في « تقدمة الجرح » (ص ٣٤٥) و « فضل التهليل » (ص ٨١) .

(١) هو ابنُ عَرَبي النّكِرة ، المتقدمة الإشارة إليه (ص ٣٩) .

(٢) وكذا الحلّاج (!) كما في « السِّيَر » (١٤ / ٣٥٣) !!

أَمَرَ نَبيَّه بأَنْ يقولَ الاسمَ المفردَ !

وهذا غَلَطٌ باتّفاقِ أَهْلِ العِلْمِ ، فإِنَّ قوله : ﴿ **قلِ اللَّهُ** ﴾ ، معناه : اللَّهُ الذي أَنْزلَ الكتابَ الذي جاءَ به موسى ، وهو جوابٌ لقوله : ﴿ **قُلْ مَنْ أنزلَ الكتابَ الذي جاءَ به موسى نُورًا وهُدىً للنّاسِ تجعلونه قراطيسَ تُبْدُونها وتُخفون كثيرًا وعُلِّمْتم ما لم تَعْلَمُوا أَنْتم ولا آباؤكم قل اللَّهُ** ﴾ ، أَيْ : اللَّهُ الذي أَنْزَلَ الكتابَ الَّذي جاءَ به موسى ، رَدَّ بذلك قَوْلَ مَنْ قالَ : ﴿ **ما أنزلَ اللَّهُ على بشرٍ مِنْ شيءٍ** ﴾ ، فقال : ﴿ **من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى** ﴾ ، ثم قال : ﴿ **قل اللَّهُ** ﴾ أَنْزَله ، ثم ذَرْ هؤلاءِ المكذّبين في خَوْضِهم يَلْعبون (١) .

ومِمّا يُبَيّنُ ما تَقَدَّمَ ، ما ذكرَه سيبويهِ وغيرُه مِنْ أَئمّةِ النّحو : أَنَّ العربَ يَحكُون بالقَوْلِ ما كان كلامًا ، ولا يَحكُون به ما كانَ قَوْلًا ، فالقَوْلُ لا يُحْكَى به إِلا كلامٌ تامٌ ، أَو جملةٌ اسميةٌ ، أَو جملةٌ فعليّةٌ ، ولهذا يَكْسِرون « إِنَّ » إِذا جاءَتْ بعد القَوْلِ (٢) ، فالقولُ لا يُحْكى به اسمٌ ، واللَّهُ تعالى لا يَأْمُرُ أحدًا بذكرِ اسمٍ مفردٍ ، ولا شَرَعَ للمسلمين اسمًا مُفْرَدًا .

والاسمُ المجرَّدُ لا يفيدُ شيئًا مِنَ الإيمانِ باتّفاقِ أَهْلِ الإِسلام ، ولا يُؤْمَرُ به في شيءٍ مِنَ العباداتِ ، ولا في شيءٍ مِنَ المخُاطَباتِ .

ونظيرُ مَن اقتصَرَ على الاسمِ المفردِ : ما يُذْكَرُ أَنَّ بعضَ الأعرابِ

---

(١) تقدّم قريبٌ مِن هذا الجواب (ص ١٢٥) .

وانظر « بدائع التفسير عن ابن القيم » (٢ / ١٦٣ - ١٦٥) .

(٢) انظر « خِزانة الأدب » (١٠ / ٢٦٨ - ٢٦٩) للبغدادي .

مرَّ بمؤذنٍ يقولُ : « أشهدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رسولَ اللَّهِ » - بالنّصبِ - فقالَ : ماذا يقولُ هذا ؟ هذا الاسمُ ، فأَيْنَ الخبرُ عنه الذي يَتِمُّ به الكلامُ ؟

وما في القرآنِ مِنْ قوله : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزَّمِّل : ٨] .

وقولِهِ : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ [الأعلى : ١] .

وقولِهِ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تزكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ [الأعلى : ١٤ - ١٥] .

وقولِهِ : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة : ٧٤] .

ونحوِ ذلك ، لا يَقْتَضِي ذِكْرَه مُفردًا .

بل في « السُّنن » (١) : أنّه لما نَزَلَ قولُهُ : ﴿ فَسَبِّحْ باسمِ رَبِّكَ العظيمِ ﴾ [الواقعة ٧٤] ، قال : « **اجعَلُوها في رُكوعِكم** » ، ولمّا نَزَل قولُه : ﴿ سَبِّحِ اسمَ رَبِّكَ الأَعْلى ﴾ [الأعلى : ١] ، قال : « **اجعَلُوها في سُجودِكم** » .

فشرَع لهم أَنْ يقولوا في الرّكوع : « **سبحانَ رَبِّي العظيمِ** » وفي

---

(١) رواه أَبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧) وأحمد (٤ / ١٥٥) والطحاوي (١ / ١٣٨) والحاكم (١ / ٢٢٥) و (٢ / ٤٧٧) والبيهقي (٢ / ٨٦) والطيالسي (١٠٠٠) وابن حبان (١٨٩٨) والدارمي (١ / ٢٩٩) ، والطبراني (١٧ / ٨٨٩) وابن خُزيمة (٦٠٠)،(٦٧٠) والبيهقي (٢ / ٨٦) عن عُقبة بن عامر .

وفيه راوٍ مجهولُ - وهو إياس بن عامر - قال الذهبي : « ليس بالمعروف » ، ولم يرو عنه غير راوٍ واحدٍ ، ووثقه ابن حبان والعِجْلي ! وقال الحافظ : « صدوق » !

ومنهجُه في مثله أن يقول : « مقبول » ، أو « مجهول » ! .

السّجودِ : « **سبحانَ رَبِّي الأَعْلَى** » .

وفي « الصحيحِ » [(١)] أَنّه كان يقولُ في ركوعِهِ : « **سُبحان رَبِّي العظيمِ** » ، وفي سجودِهِ : « **سُبحان رَبِّي الأعلى** » ، وهذا هو معنى قولِهِ : « **اجعَلُوها في ركوعِكم وسجودِكم** » باتّفاقِ المسلمين .

فتسبيحُ اسمِ ربِّه الأَعْلى ، وذِكْرُ اسمِ رَبِّه - ونحوُ ذلك - هو بالكلامِ التامِّ المفيدِ ؛ كما في « الصّحيحِ » [(٢)] ، عنه ﷺ أَنَّه قال : « **أَفْضَلُ الكلامِ بعدَ القرآنِ أربعٌ - وهُنَّ مِنَ القرآنِ - : سبحانَ اللَّهِ ، والحمدُ للَّهِ ، ولا إِلهَ إِلا اللَّهُ ، واللَّهُ أَكبرُ** » .

وفي « الصّحيحِ » [(٣)] عنه ﷺ أَنَّه قال : « **كلمتانِ خفيفتانِ على**

---

(١) « صحيح مسلم » (٧٧٢) عن حُذَيْفَةَ .
وفي الباب عن عدّةٍ مِن الصحابة خارجَ « الصحيح » .

(٢) هو في « صحيح مسلم » (٢١٣٧) بنحوه .
وعلّقه البخاريُّ في « صحيحه » (١١ / ٥٦٦) .
ورواه أحمد (٥ / ١٠ و ٢١) والنَّسائي في « عمل اليوم والليلة » (٨٤٥) والبَغَوي (١٢٧٦) والطبراني (٦٧٩١) وابن حبان (٨٣٥) و (٨٣٩) والطيالسي (٨٩٩) وابن ماجه (٣٨١١) عن سَمُرة بن جُنْدُب .
وليس عندهم جميعًا : « وهُنَّ في القرآن » .

(٣) رواه البخاري (٦٤٠٦) و (٦٦٨٢) و (٧٥٦٣) ومسلم (٢٦٩٤) والترمذي (٣٤٦٧) وابن ماجه (٣٨٠٦) وابن أبي شيبة (١٠ / ٢٨٨) وأحمد (٢ / ٢٣٢) وابن حبان (٨٣١) و (٨٤١) والنَّسائي في « عمل اليوم » (٨٣٠) والبيهقي في « الأسماء والصفات » (٤٩٩) عن أبي هُريرة .
وللإمام ابن ناصر الدِّين الدمشقي جزءٌ مُفْرَدٌ عنوانه : « التنقيح » في شرح هذا الحديث ، وقد طُبِعَ قريبًا بتحقيق الأَخ الفاضل محمد ناصر العَجْميّ .
فائدة :
لا يُعرف هذا الحديث إلا عن أبي هُريرة - فهو غريبٌ - وهو آخرُ أحاديثِ « صحيح البخاري » ، =

اللِّسانِ ، ثقيلتانِ في الميزانِ ، حبيبتانِ إلى الرّحمنِ : سبحانَ اللّهِ وبحمدِهِ ، سبحَانَ اللّهِ العظيمِ » .

وفي « الصَّحيحين » (١) عنه ﷺ أنَّه قال : « مَنْ قال في يومِهِ مائةَ مَرَّةٍ : لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له ، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ ، كتبَ اللَّهُ له حِرْزًا مِنَ الشّيطانِ يومَه ذلك ، حتى يُمْسي ، ولم يَأْتِ أَحَدٌ بأفضلَ مِمّا جاءَ به ، إلا رجلٌ قالَ مِثْلَ ما قال أو زاد عليه ، ومَنْ قال في يومِهِ مائةَ مرَّةٍ : سبحانَ اللَّهِ وبحمدِهِ ، سبحانَ اللَّهِ العظيم ، حُطَّت عنه خطاياه ولو كانت مثلَ زَبَدِ البَحْرِ » .

وفي « المُوطَّأ » (٢) ، وغيرِه عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال : « أَفْضَلُ ما قُلْتُه أنا والنّبيون مِنْ قَبْلِي : لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شريكَ له ، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ » .

وفي « سُنَنَ ابن ماجه » (٣) وغيرِه عنه ﷺ أنَّه قال : « أَفْضَلُ الذّكْرِ : لا إلهَ إلّا اللَّهُ ، وأَفْضَلُ الدّعاء : الحمدُ للَّهِ » .

ومثلُ هذه الأحاديثِ كثيرةٌ في أنواعِ ما يُقالُ مِنَ الذّكْرِ والدّعاءِ .

وكذلك ما في القرآن مِنْ قولِهِ تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلوا مِمّا لم يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام : ١٢١] ، وقوله : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : ٥] ، إنّما هو قولُ : باسمِ اللَّهِ ،

= وكذا أوّلُ أحاديثِهِ « إنّما الأعمال بالنّيات » – وقد سبق (ص ١٠٨) – لا يَثْبتُ إلّا عن عُمر ، فهو غريبٌ أيضًا .

(١) رواه البخاري (١١ / ١٦٨) ومسلم (٢٦٩١) ومالك (١ / ٢٠٩) والترمذي (٣٤٦٤) .

(٢) تقدّم تخريجُه (ص ١٢٤) .

(٣) تقدّمَ تخريجُه (ص ١٢٤) .

وهذا جملةٌ تامّةٌ ، إمّا اسميّةٌ على أَظْهَرِ قَوْلَي النُّحاةِ ، أو فِعْليَّةٌ ، والتّقديرُ : ذَبْحِي باسمِ اللَّهِ ، أو : أَذبحُ باسمِ اللَّهِ .

وكذلك قولُ القارئِ : « بسم اللَّهِ الرحمنِ الرحيمِ » ، فتقديرُهُ : قراءَتي باسمِ اللَّهِ ، أو : أقرأُ باسمِ اللَّهِ .

ومِنَ النّاسِ مَنْ يُضْمِرُ في مثلِ هذا : ابتدائِي باسمِ اللَّهِ أو : ابتدَأْتُ باسم اللَّهِ .

والأَوَّلُ أَحْسَنُ ؛ لأَنَّ الفعلَ كلَّه مفعولٌ باسمِ اللَّهِ ليس مجرّدَ ابتدائِهِ ، كما أظهرَ المُضْمَرَ في قوله : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ ربِّكَ الَّذي خَلَقَ** ﴾ [العلق : ١] ، وفي قولِهِ : ﴿ **باسمِ اللَّهِ مَجْراها ومُرْساها** ﴾ [هود : ٤١] ، وفي قول النبيّ ﷺ : « **مَنْ كانَ ذبحَ قبل الصّلاةِ فليذبَحْ مكانَها أُخرى ، ومَنْ لم يَكُنْ ذَبَحَ فليذبَحْ باسم اللَّهِ** » [(١)] .

ومِنْ هذا الباب قولُ النبيِّ ﷺ في الحديثِ الصّحيح [(٢)] ، لربيبه عُمَرَ بن أبي سَلَمَةَ : « **يا غلامُ سَمِّ اللَّهِ ، وكُلْ بيمينِكَ ، وكُلْ مِمّا يليكَ** » .

فالمرادُ أَنْ يقولَ : باسمِ اللَّهِ [(٣)] ، ليس المرادُ أَنْ يذكرَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٠ / ١٧) ومسلم (١٩٦٠) والنّسائي (٧ / ٢٢٤) وابن ماجه (٣١٥٢) والبيهقي (٩ / ٢٧٦) والطيالسي (٩٣٦) وأحمد (٤ / ٣١٢ و ٣١٣) عن جُندب .

(٢) رواه البخاري (٥٣٧٦) ومسلم (٢٠٢٢) والنّسائي في « الكبرى » - كما في « التحفة » (٨ / ١٣٠) - وابن ماجه (٣٢٦٧) والدارمي (٢ / ١٠٠) والبيهقي (٧ / ٢٧٧) وأحمد (٤ / ٢٦ و ٢٧) وابن السُّنِّي (٣٥٦) والترمذي (٩١٨) عن عُمَر بن أبي سَلَمة عنه ﷺ .

(٣) وروى الطبرانيُّ الحديثَ في « الكبير » (٨٣٠٤) بلفظِ : « **يا غُلام إذا أكلتَ ، فقل : بسم اللَّه** » . وسندُهُ صحيحٌ على شرط الشيخين .

قال شيخُنا في « الإرواء » (٧ / ٣١) :

« ففيه بيانُ ما أُطْلِقَ في الروايات الأخرى ، وأنَّ التسمية على الطعام إنّما السُّنَّةُ فيها أن يقولَ باختصار : « بسم اللَّه » ، فاحفظ هذا فإنّه مهمٌّ عند مَن يُقَدِّرون السُّنّة ، ولا يُجيزون الزيادة عليها » . =

الاسم مجردًا .

وكذلك قولُه في الحديثِ الصّحيح [(١)] ، لعدِيٍّ بن حاتمٍ : « **إذا أرْسَلْتَ كَلْبَكَ المعلَّمَ ، وَذَكَرْتَ اسمَ اللَّهِ فَكُلْ** » .

وكذلك قولُه ﷺ : « **إذا دخلَ الرَّجلُ منزِلَه فذكر اسمَ اللَّهِ عندَ دُخولِهِ ، وعندَ خُروجِهِ ، وعندَ طعامِهِ ، قال الشّيطان : لا مبيتَ لكم ولا عشاءَ** [(٢)] » .

وأمثالُ ذلك كثيرٌ .

وكذلك ما شُرِعَ للمسلمين في صلاتِهم وأَذانِهم وحَجِّهم وأَعْيادِهم مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تعالى ، إنّما هو بالجملةِ التامّةِ :

كقولِ المؤذّنِ : اللَّهُ أكبرُ ، اللَّهُ أكبرُ ، أشهدُ أَنْ لا إلهَ إلّا اللَّهُ ، أشهدُ أَنَّ محمدًا رسولُ اللَّهِ .

وقولِ المصلّي : اللَّهُ أكبرُ ، سبحانَ رَبِّي العظيمِ ، سبحانَ رَبِّي الأَعْلَى ، سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَه ، ربّنا ولك الحمدُ ، التّحيّات للَّهِ .

وقولِ المُلبِّي : لبيكَ اللّهمّ لبيّك .

وأمثالُ ذلك .

= وانظر « سلسلة الأحاديث الصحيحة » (رقم : ٣٤٤) .

(١) رواه البخاري (٩ / ٦٠٩) ومسلم (١٩٢٩) وأبو داود (٢٨٤٨) وابن ماجه (٣٢٠٨) وأحمد (٤ / ٢٥٨) والبيهقي (٩ / ٢٣٩ و ٢٣٧) والنّسائي (٧ / ٨٣) والطيالسي (١٠٣٠) وابن ماجه (٣٢١٣) من طرق عن الشَّعْبي ، عن عَديٍّ ، بِه .

(٢) رواه مسلم (٢٠١٨) وأبو داود (٣٧٦٥) وابن ماجه (٣٨٨٧) وأحمد (٣ / ٣٤٦) والبخاري في « الأدب المفرد » (١٠٩٦) والبيهقي (٧ / ٢٧٦) عن جابرٍ .

فجميعُ ما شَرَعه اللَّهُ مِنَ الذِّكْرِ ، إنّما هو كلامٌ تامٌّ ، لا اسْمٌ مُفْرَدٌ ، لا مُظْهَرٌ ولا مُضْمَرٌ .

وهذا هو الذي يُسَمَّى في اللغةِ : كلمةً ، كقولِه : « **كلمتانِ خفيفتانِ على اللسانِ ثقيلتانِ في الميزانِ ، حبيبتانِ إلى الرّحمنِ ، سبحانَ اللَّهِ وبحَمْدِهِ ، سبحانَ اللَّهِ العظيمِ** » [١] .

وقولِه : « **أَفْضَلُ كلمةٍ قالها الشاعِرُ : كلمة لَبيدٍ** [٢] : **أَلَا كلُّ شيءٍ ما خلا اللَّهَ باطل** » [٣] .

ومنه قولُهُ تعالى : ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ** ﴾ [الكهف : ٥] .

وقولُهُ : ﴿ **وَتَمَّتْ كلمةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا** ﴾ [الأنعام : ١١٥] .

وأمثالُ ذلك مِمّا استُعْمِلَ فيه لفظُ : « الكلمةِ » في الكتابِ والسنّةِ ، بل وسائرِ كلام العربِ ، فإنّما يُرادُ به الجملةُ التامّةُ كما كانوا يَستعملونَ الحَرْفَ في الاسمِ ، فيقولون : هذا حَرْفٌ غريبٌ ؛ أي : لفظُ الاسمِ غريبٌ .

وقَسَّمَ سيبويه [٤] الكلامَ إلى : اسمٍ ، وفعل ، وحرفٍ جاءَ لمعنى ؛

---

(١) تقدّمَ تخريجُه (ص ١٣٠) .

(٢) قال الإمام الذهبي في « تجريد أسماء الصحابة » (٢ / ٣٨) : « لَبيد بن ربيعة بن عامر العامِري ، ثم الجعفري ، أبو عَقيل ، الشاعر المشهور ، وَفَدَ في وَفْد بني جعفر بن كِلاب ، فأسلم وحَسُن إسلامُه ، ولم يَتْلُ شِعرًا منذ أسلم ، توفّي عام الجماعة بالكوفة وله مائةٌ وخمسون سنة » .
وانظر المقدمة (ص ١١) .

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٤١) ومسلمٌ (٢٢٥٦) والترمذي في « سننه » (٢٨٥٣) و « الشمائل » (٢٠٧ - مختصره) وابن ماجه (٣٧٥٧) وأحمد (٢ / ٢٤٨ و ٣٩١ و ٤٤٢) عن أبي هريرة .

(٤) كما في « الكتاب » له .

ليس باسمٍ ولا فعلٍ ، وكلٌّ مَنْ هذه الأقسامِ يُسَمّى حَرْفًا ، لكِنْ خاصَّةُ الثالثِ : أَنَّه حَرْفٌ جاءَ لمعنىً ، ليس باسمٍ ولا فِعْلٍ .

وسَمَّى حروفَ الهجاءِ باسمِ الحرفِ ، وهي أسماءٌ .

ولفظُ الحرفِ يتناولُ هذه الأَسماءَ وغَيْرَها ، كما قال النبيُّ ﷺ : « **مَنْ قرأ القرآنَ فأَعْرَبه فله بكلِّ حرفٍ عشرُ حسناتٍ ، أَمَا إِني لا أقولُ : الم حَرْفٌ ، ولكن أَلِفٌ حَرْفٌ ، ولامٌ حَرْفٌ ، وميمٌ حرْفٌ** »[1] .

وقد سأَلَ الخليلُ[2] أصحابَه عن النُّطْقِ بحرفِ الزاي مِنْ زَيْدٍ ؟ فقالوا : « زاي » ، فقال : جئتم بالاسمِ ، وإنّما الحرفُ : « زَ » .

ثم إنَّ النُّحاةَ اصطلحوا على أَنّ هذا المسمّى في اللغةِ بالحَرْفِ ، يُسَمّى كلمةً ، وأَنَّ لفظَ الحَرْفِ يُخَصُّ لما جاءَ لمعنىً ، ليس باسمٍ ولا فعلٍ ، كحروفِ الجرِّ ونَحْوِها .

وأَمّا ألفاظُ حروفِ الهجاءِ ، فَيُعَبَّرُ تارةً بالحَرْفِ عن نَفْس الحَرْفِ مِنَ اللفظِ ، وتارةً باسم ذلك الحَرْفِ .

ولمّا غَلَب هذا الاصطلاحُ صارَ يَتوهّمُ مَن اعتادَه أَنَّه هكذا في لُغةِ العربِ .

ومنهم مَنْ يجعلُ لفظَ « الكلمة » في اللغةِ لَفْظًا مُشْتَركًا بين الاسمِ مثلًا ، وبينَ الجملةِ ، ولا يُعرَفُ في صريحِ اللغةِ مِنْ لفظِ :

---

(١) صحّ الحديثُ دونه قولِهِ ﷺ « **فأعربه** » فانظر تعليقي على « الوصيّة الكبرى » (ص ٥٨) للمؤلِّف رحمه اللّه ، وانظر مقدمة هذا الكتاب (ص ١٢) .

(٢) هو الفراهيديُّ ، واضعُ علمِ العَروض ، توفي سنة (١٧٢ هـ) ترجمتُه في « السِّيرَ » (٧ / ٤٢٩) .

« الكلمةِ » إلّا الجملةُ التامّةُ .

والمقصودُ هنا : أَنَّ المشروعَ في ذِكْرِ اللَّهِ سبحانَه ، هو ذِكْرُهُ بجملةٍ تامَّةٍ ، وهو المُسَمَّى بـ « الكلامِ » ، والواحدُ منه بـ « الكلمة » ؛ وهو الذي ينفَعُ القلوبَ ، ويحصُلُ به الثّوابُ والأَجْرُ ، والقرْبُ إلى اللَّهِ ومَعْرِفَتُهُ ، ومَحَبَّتُهُ وخَشْيَتُهُ ، وغير ذلك مِنَ المطالبِ العاليةِ ، والمقاصدِ السّاميةِ .

وأَمَّا الاقتصارُ على الاسمِ المُفْرَدِ مُظْهَرًا أَو مُضْمَرًا فلا أَصْلَ له ، فَضْلًا عن أَنْ يكونَ مِنْ ذِكْرِ الخاصّةِ والعارفين !

بل هو وسيلةٌ إلى أنواعٍ مِنَ البَدعِ والضّلالاتِ وذريعةٌ إلى تَصَوُّراتٍ وأَحْوالٍ فاسدةٍ مِنْ أَحْوالِ أَهْلِ الإلحادِ وأَهْلِ الاتّحادِ ، كما قد بُسِطَ الكلامُ عليه في غيرِ هذا الموضِعِ .

* * *

٤ - فصل

[جِمَاعُ الدِّينِ]

وجِماعُ الدِّينِ أَصْلان :

أَنْ لا نَعْبُدَ إِلّا اللَّهَ .

ولا نعبُدَه إِلّا بما شَرَعَ ، لا نعبُدَه بالبدعِ .

كما قال تعالى : ﴿ **فَمَنْ كان يرجو لقاءَ رَبّه فليَعْمَلْ عملًا صالحًا ولا يُشْرِكْ بعبادةِ رَبّه أحدًا** ﴾ [الكهف : ١١٠] .

وذلك تحقيقُ الشّهادَتَيْنِ : شهادَةِ أَنْ لا إِلهَ إِلّا اللَّهُ ، وشهادَةِ أَنَّ محمدًا رسولُ اللَّهِ .

ففي الأُولى : أنْ لا نعبُدَ إِلا إِيّاه .

وفي الثانية : أَنَّ محمدًا ﷺ هو رسولُ اللَّهِ المبلِّغُ عنه ، فعلينا أَنْ نُصَدِّقَ خَبَرَهُ ونطيعَ أَمْرَه .

وقد بيَّن لنا ما نعبدُ اللَّهَ به ، ونهانا عن مُحْدَثاتِ الأمورِ ، وأخبرَ أَنّها ضلالةٌ [١] .

قال تعالى : ﴿ **بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَه لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فله أَجْرُه عند رَبِّه**

---

(١) انظر « جزء اتِّباع السُّنَن » (رقم : ١ و ٢ و ٣) للضِياء المقدسي ، وتعليقي عليهِ ، وما سبق (ص ١٠٨) .

ولا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلَا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ [البقرة : ١١٢] .

كما أنّنا مَأْمُورونَ أَنْ لا نخافَ إلّا اللّهَ ، ولا نتوكَّلَ إلّا على اللّهِ ، ولا نَرْغَبَ إلّا إلى اللّهِ ، ولا نستعينَ إلّا باللّهِ ، وأَنْ لا تكونَ عبادتُنا إلّا للّهِ ، فكذلك نحنُ مَأْمُورونَ أَنْ نَتَّبع الرّسولَ ونطيعَه ، ونتأسّى به ، فالحلالُ ما حَلَّلَهُ ، والحرامُ ما حرَّمَهُ ، والدِّينُ ما شَرَعَهُ .

قال تعالى : **﴿ وَلَوْ أَنَّهم رَضُوا مَا آتاهُمُ اللّهُ وَرَسولُهُ وقالوا حَسْبُنا اللّهُ سَيُؤْتِينا اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ ورَسولُهُ إِنّا إلى اللّهِ رَاغِبونَ ﴾** [التوبة : ٥٩] ، فجعلَ الإيتاءَ ، للّهِ وللرّسولِ ، كما قال : **﴿ وما آتاكمُ الرسولُ فخذُوه وما نهاكمُ عنه فانْتَهُوا ﴾** [الحشر : ٧] .

وَجَعَلَ التَوكُّلَ على اللّهِ وحدَه بقوله : **﴿ وقالوا حَسْبُنَا اللّهُ ﴾** [التوبة : ٥٩] ، ولم يَقُلْ : ورسولُه ؛ كما قالَ في وَصْفِ الصّحابةِ رَضِيَ اللّهُ عَنهم في الآيةِ الأُخْرى : **﴿ الذين قال لهم النّاسُ إنَّ النّاسَ قد جَمَعُوا لكم فاخْشَوْهم فزادَهم إيمانًا وقالوا حَسْبُنا اللّهُ ونِعْمَ الوكيلُ ﴾** [آل عمران : ١٧٤] .

ومِثْلُه قولُه : **﴿ يا أَيّها النبيُّ حَسْبُكَ اللّه وَمَنِ اتَّبعك مِنَ المؤمنين ﴾** [الأنفال : ٦٤] ، أي : حَسْبُكَ وحَسْبُ المؤمنينِ ، كما قال : **﴿ أليسَ اللّهُ بكافٍ عَبْدَه ﴾** [الزمر : ٣٦] .

ثم قال : **﴿ سيُؤتينا اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ ورسولُه ﴾** [التوبة : ٥٩] ، فجعلَ الإيتاءَ ، للّهِ وللرّسولِ ، وقَدَّمَ ذِكْرَ الفَضْلِ للّهِ ؛ لأَنَّ الفَضْلَ بيدِ اللّهِ يُؤْتيه مَنْ يَشاءُ واللّهُ ذو الفَضْلِ العظيمِ ، ولهُ الفَضْلُ على رسولِهِ

وعلى المؤمنين .

وقال : ﴿ **إنّا إلى اللَّهِ راغبون** ﴾ [التوبة : ٥٩] ، فجعلَ الرّغبَةَ إلى اللَّهِ وَحْدَه ، كما في قولِهِ : ﴿ **فإذا فَرَغْتَ فانْصَبْ * وإلى رَبِّكَ فارْغَب** ﴾ [الانشراح : ٧ - ٨] .

وقال النبيُّ ﷺ لابن عبّاسٍ : « **إذا سَأَلْتَ فاسأَلِ اللَّهَ وإذا اسْتَعَنْتَ فاستَعِنْ باللَّهِ** » [١] .

والقرآنُ يَدُلُّ على مِثْلِ هذا في غيْرِ مَوْضِعٍ .

فجعلَ العبادَةَ والخَشْيَةَ والتّقوى للَّهِ ، وجعلَ الطّاعَةَ والمحبَّةَ للَّهِ ورسولِهِ ، كما في قَوْلِ نوحٍ عليه السّلامُ : ﴿ **أَنِ اعبدوُا اللَّهَ واتّقوه وأطيعونِ** ﴾ [نوح : ٣] .

وقولِهِ : ﴿ **وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ ورسولَه ويَخْشَ اللَّهَ ويتَّقْهِ فأُولئِكَ هم الفائِزون** ﴾ [النور : ٥٢] .

وأمثالُ ذلك .

فالرُّسُلُ أُمِرُوا بعبادَتهِ وَحْدَه ، والرّغْبَةِ إليه ، والتوكُّلِ عليه ، والطّاعةِ لهم ، فأَضلَّ الشّيطانُ النّصارى وأشباهَهُم فأشرَكُوا باللَّهِ وَعَصَوُا الرّسولَ ، فاتَّخَذُوا أَحبارَهم ورُهبانَهم أربابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ والمسيحَ ابنَ مريمَ ، فَجَعَلُوا يَرْغَبُونَ إليهم ويتوَكَّلُونَ عليهم ، ويَسْأَلُونَهم ، مع مَعْصِيَتِهم لأَمْرِهم ومُخَالَفَتِهم لسُنَّتِهم ؛ وهَدَى اللَّهُ المؤمنين المخْلِصين للَّهِ أهلَ الصراطِ المستقيمِ ، الذين عَرَفُوا الحقَّ واتَّبَعُوهُ ، فلم يَكُونوا مِنَ

(١) تقدّمَ تخريجُه ص : (٦٩) .

المغضوبِ عليهم ولا الضّالين ، فأَخْلَصُوا دِيْنَهم للَّهِ ، وأَسْلَمُوا وجوهَهم للَّهِ ، وأَنابوا إلى رَبِّهم ، وأَحبُّوه ورَجَوْه ، وخافُوه ، وسَأَلوه ، ورَغِبُوا إليه ، وفَوَّضُوا أُمورَهم إليه ، وتَوَكَّلُوا عليه ، وأَطاعوا رُسُلَه ، وعَزَّروهم [١] ، ووقَّروهم ، وأَحَبُّوهم ، ووالَوْهم ، واتَّبَعوهم ، واقْتَفَوْا آثارَهم ، واهتَدَوْا بمنارِهم .

وذلك هو دِيْنُ الإِسلامِ الذي بعَثَ اللَّهُ به الأَوَّلين والآخرين مِنَ الرّسلِ ، وهو الدِّيْنُ الذي لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ أَحدٍ دينًا إلّا إِيّاه [٢] .

وهو حقيقةُ العبادةِ لربِّ العالمين .

فنسأَلُ اللَّهَ العظيمَ أَنْ يُثَبِّتَنا عليه ، وَيُكْمِلَه لنا [٣] ويُميتَنا عليه ، وسائِرَ إِخوانِنا المسلمين .

والحمدُ للَّهِ وحدَه .

وصلّى اللَّهُ على سيِّدِنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ وسلم [٤] .

---

(١) عظَّموهم .

(٢) فدندنةُ بعض (العصرانيينّ) حولَ (وحدة الأديان) و (التسامح الدينيّ) و (الإخوّة الإنسانية) مِنْ ضلالاتِ هؤلاءِ المُبطلين ، وانحرافاتهم ، بل كُفريّاتِهم ، وإِنّما يُريدون بذلك اجْتِثاثَ أَصْلِ الإسلام ، ومَحْوَ حقيقة دينِ اللَّهِ مِن النُّفوس ، فالحذَرَ الحَذَرَ !!

(٣) مِنْ حيث الْتزامُنا به ، وطاعتُنا للَّهِ فيهِ .

(٤) كان الفراغُ من ضبط نصِّه ، والتعليق عليه ، وتخريجِ أحاديثِهِ ، عَصْرَ يوم الجمعة ، لثمانيةِ أيامٍ خَلَت من شهر ذي القَعْدة سنة عشرٍ وأربع مائة وألف للهجرة .
كتبه العَبْدُ الفقيرُ لمولاه الغنيّ : علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبيُّ الأثريُّ ، عفا اللَّهُ عنه بمنِّهِ وكَرَمِه .
ثم أَكَّدْتُ النَّظَرَ فيه ، وراجعتُهُ ، في مجالسَ آخِرَها صبيحة يومِ الثلاثاءِ ، الرّابعِ عشر من شهر رمضان المبارك ، سنة خمس عشرة بعد الأَربع مائةِ والأَلف هجريّة .

الفهارس العلميّة



١ - فهرسُ الأحاديث

على وَفْقِ الترتيبِ الهِجَائيِّ

الحديث	الصفحة

٢ - فهرسُ فوائد التعليقات

الفائدة | الصفحة

٣ - الفهرس الإجمالي

الموضوع	الصفحة